سنوات ناظم حكمت المبكرة

ومقالات عن شخصيات أخرى

ترجمة وتحرير

جودت جالي

سنوات ناظم حكمت المبكرة

ترجمة وتحرير جودت جالي

2020

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف. لا يسمح بطبع هذا الكتاب أو التصرف بمادته بأي شكل كان أو اقتباس جزء منه لغير المقالات النقدية والاعلانية والتعليمية إلا بموافقة من المؤلف0 يمكن تحميله للقراءة الفردية فقط وليس لأغراض تجارية.

العناوين

سنوات ناظم حكمت المبكرة

حقيبة أبي... أورهان باموق

الماضي غير التام لمارك بلوخ

جان دارك في المحكمة

حياة بول ريكور

نور الدين فارح

سنوات ناظم حكمت المبكرة

بعد وفاة صديق ناظم حكمت (عابدين دينو 1913 – 1993) Abidine Dino الرسام والسينمائي التركي الذي كان يقيم في المنفى بفرنسا، عثر أحد أفراد عائلته بين أوراقه على ذكريات مخطوطة غير تامة عن ناظم حكمت كتبها عابدين بالفرنسية فقامت مجلة يورب الفرنسية بنشرها في أحد أعدادها تحت عنوان (سنوات ناظم حكمت المبكرة).

*****

كانت تسحره قبلات جميلات الغرفة المخصصة لسيدات الدرجة الأولى ، عطورهن ، أيديهن الناعمة ، عيونهن الكحيلة .. بعد نصف ساعة تنقضي لحظة السحر هذه ويعود من جديد طفلا مرعبا ، كثير النسيان للسيدات ، تارة يكون رقيقا ، وتارة غضوبا ، وتارة حالما ، تاركا كل ما مر فيه يشف كليا . في الواقع كانت تمر فيه وحوله أشياء تجعله يوميء ، ويركض ، وينشد ، ويندفع ثم يتوقف فجأة مأخوذا بموجة كآبة تغرقه لساعات طوال في بطون الكتب .. كان غالبا ما يدمدم لوحده بعبارات . لقد أخذ من جهة الأب والأم معا حب الكلمات .. الكلمات التي كان يسمعها قرب جده ، ناظم باشا ، الحاكم السابق المتقاعد العائد الى أسطنبول ، وكذلك عبارات أصدقاء جده المخلصين ، المولويين ، أشخاص طوال القامة كأشجار السرو ، يستعملون غالبا كلمات عربية–فارسية فخمة ، إيقاعية ، مزوقة ، يتلو الباشا وأصدقاؤه أبياتا رائعة بتلك اللغة المركبة التي هي اللغة العثمانية . كان ناظم حكمت قد عرف قربهم نشوة إيقاع العروض التقليدي Aruz ، الثيمة الدورانية المقطعة أبدا وهي تعود الى نقطة البداية دائما ، والزمن المغلق ، والحيز المسيج ، وقد نظم على هذا المنوال قصيدة (مولاناMevlana) التي مطلعها (فيما كانت جبهتي مطوقة بتاج العدم) .

جليلة هانم والدة ناظم حكمت

*

إطلع ناظم جيدا على قصائد أمه .. قصائد رافضة ، شابة ، عثمانية ، وعلى الشعر الفرنسي ، لامارتين ، وهيغو ، وفيرلين ، وبودلير ، وعلى هيغو التركي الذي كان يدعى (نامق كامل) ، أول شاعر سياسي ، ملتح ، تفجر كاللعنة بوجه السلطان الذي عمد الى عقابه بالنفي ، والسجن ، وأعدمه في النهاية ، كان يدافع عن "الوطن" و "الحرية" ، ومن بعده الرافض العظيم الثاني الذي يدعى (توفيق فكرت) ، ذلك الذي قاتل عن بصيرة ، وحيدا ، شرسا ، وكانت أشعاره تبعث أحيانا على الدهشة إذ يقول ((وطني العالم كله)) .

كان المصدر اللغوي الآخر هو قبيلة والدة ناظم ، مصدر له خصوصياته ، فكاهته الخاصة (فكاهة الشركسيين ، طعم الكلمات الشعبية ، القدرة على تقليد نبرة وحركات الحوذيين ، والجذافين ، وبائعي اللبن الرائب ، والذرة ، والفراولة ، والخدم اليونانيين ، والغسالات الأرمنيات

، والمربيات الفرنسيات ، والجيران ، والباشوات الباذخين وهم يقومون بزيارة ما). كانت هذه القبيلة مستهزئة من النوع الخطر ، كانت عبارة عن معجم ملاحظات وكلمات هزلية ، من الجهتين (جهة الأم وجهة الأب) وقد أخذ ناظم الصغير منها البذرة ، وكدس الكلمات والصيغ ، علاوة على أن (المدرسة البحرية) قد أضافت الى معارف ناظم اللغوية كلام البحارة والصيادين مختلطا بكلام (الطلمبجية) وهم الإطفائيون المحليون المتطوعون ، و Kulhanbey سيئي التربية ذوي اللغة الإصطلاحية المزوقة . عندما أخذ يعبر أراضي الأناضول فيما بعد ، خصوصا في مختبرات أفعال اللغة ذات الهيمنة الفلاحية التي هي السجون التركية ، إستطاع ناظم أن يثري معجمه الشخصي . لقد إمتلك ناظم من العمق نضائد اللغة التركية وفق المجاميع الإجتماعية والطبقات، وإستطاع بنماذج منها أن يرقى بالمصادر المتعددة الى مستوى شرفي أعلى. كما عرفت بعض مراحل طفولته ، بفضل شقيقته سامية ، من بين مراحل أخرى تأريخا إبداعيا فريدا.

كسر ناظم ذات يوم ، وقد إستولى عليه إلهام مفاجئ ، زجاجة واجهة البيت لكي يبني ، كما قال ، "طائرة زجاجية" . إن الغرابة المرتبطة بالفكرة الجوية والشفافية تبدو لي محاولة إبداعية للغاية ، إذا تحدثنا من الناحية الشعرية ، فالمشروع كان أصله أدبيا دون شك لأن ناظما كان في تلك الفترة يكثر من قراءة جول فيرن . لكن نية ناظم صنع الطائرات لم تكن دليلا على حسن الطالع ، فبعد "إختراع الطائرة الزجاجية" عاقبه أبوه عقابا ثار بعده الطفل وهرب من البيت . تتبعوه ووجدوه ومن ثم كان عليه أن يعود الى صوابه فالطفل في عمر السابعة لا يمكنه الذهاب بعيدا . بعد ذلك بزمن طويل في سجن "برصة" أطلق على السجن الإنفرادي الذي حبس فيه إسم "الطائرة الزجاجية" ، لكن هذه الطائرة لم تعد لعبة أطفال .

أظن أن الطائرات كانت بالعكس تصيبه بالإعياء ، فبعد رحلة بالطائرة من موسكو الى بكين أصيب بأزمته القلبية الأولى ، وبعد رحلة العودة من بكين الى موسكو ، بالطائرة أيضا ، ساءت حالته وأصابه الشلل لعدة أشهر. ثم قام بآخر وأطول رحلة جوية (يا له من تهور!) الى تانجانيقا لحضور مؤتمر وهناك فقد ما بقي لديه من قوة ، وعلى العكس كانت رحلته الى هافانا قد أعادت اليه الإحساس بالشباب والحماس ، وكان رواحه ومجيئه من والى إيطاليا يريحه أيضا ، وأكثر من هذا كانت إقاماته في باريس – في حي سان ميشيل الذي كان يطلق

عليه إسما غريبا هو "وطني"- تهديء أعصابه. كانت العودة منها الى موسكو وحقائبه محشوة بالهدايا والقصائد الجديدة كوصوله اليها وحقائبه محشوة بالهدايا والقصائد الجديدة بمثابة أعياد. ما أن ينزل من السماء لم يكن عنده شيء أجدر بالعجلة من قراءة قصيدته الأخيرة لصديق ، وفي أي مكان ، وفي أي ظرف ... ولكن بالتركية.

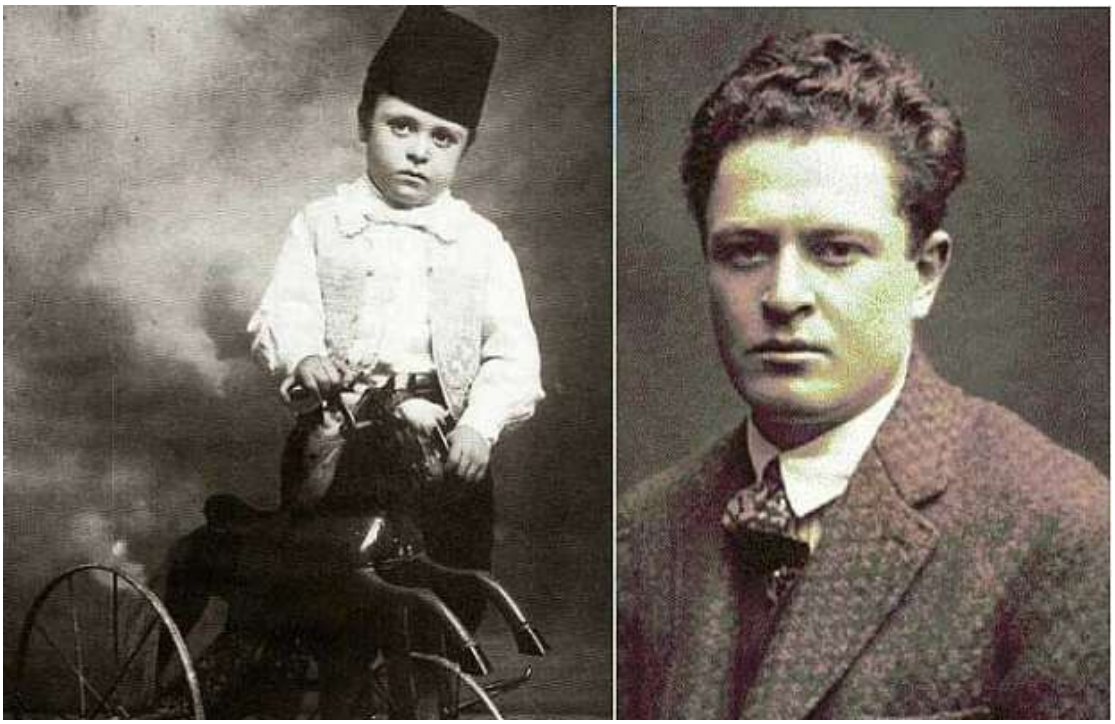

ناظم حكمت طفلا وشابا

*

كان بالمقابل قد حدثني عن رحلته الى لبنان بحزن يدق عن الوصف حين رأى ، والطائرة تحلق بخط مائل، الأرض التركية ، وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي سيلمح فيها أرض بلاده. تمعن ((الربان نيمو)) الذاهب الى المنفى بحب، ووجهه ملتصق بنافذة الطائرة، الجبال والزهور والسهول التي تمتد الى ما لا نهاية . بعيدة جدا ، وقريبة جدا ، وهو على إرتفاع 10000 متر ، إنبسطت تحته تركيا كأنها خرائط طفولته الجغرافية. كان يعرف أنه توجد هناك في الأسفل "المناظر البشرية" ، رجال ونساء قصائده، في مكان ما، في قراهم المعزولة ، يرفعون عيونهم ليروا طائرة في غاية الصغر تمر عابرة في الأعالي ، ليست من زجاج ،

وليست من حجر ، يجهلون حنين الشاعر الذي لا حد له وهو على سطح الطائرة المحلقة التي تخلف وراءها خطا أبيض مثلثا في سماء الأناضول ...

فيما كان الشاعر الشاب يكبر بسرعة كان الخط المنحني الذي يبين إضمحلال الإمبراطورية يكمل مسقطه. لقد شكلت الحرب الدموية للدفاع عن الدردنيل عام 1915 نصرا لا ينكر للجيش الذي كان قوامه الفلاحون ولمصطفى كمال ولكنها كانت مجزرة إذ قتل فيها 40000 تركي بضمنهم خال ناظم حكمت الحبيب الشاب محمد علي. كتب ناظم في ذكراه أربع قصائد وطنية، قصائد رديئة جدا ولكنها مشبعة ببطولة الراحلين. كانت هذه المعركة آخر إنتصار للجيوش العثمانية قبل تدهور الأوضاع في عام 1919.

إن القصائد التي كتبها ناظم حكمت بعد ذلك عن الهزائم أصبحت شيئا فشيئا أكثر كآبة وأكثر يأسا، وركيكة أيضا، أضاف ثيمات غامضة الرمزية وغير منظمة عن الحب والعاطفة، مع ذلك، يمكن لمن يفتش هنا وهناك بين أشعاره أن يقع على شعر لا يفتقر الى جذب الإنتباه، وحتى الى بعض النجاح الذي يمكن إعتباره واعدا. تقع الرسالة اليائسة التي أرسلها الى أمه عام 1918 بين قصائده الأولى لعامي 1914 و 1919. غير أن إنفصال أبويه حدث ولم يعد والده حكمت ناظم بك ووالدته جليلة هانم يعيشان معا. أضيف الى ألم الإنفصال العائلي ألما بالنسبة الى الشاب ناظم هو ورود أخبار الكوارث السياسية والعسكرية التي ظلت تتواتر الى أن إحتلت قوات الحلفاء اسطنبول.

كانت العائلة، جريا على التقاليد، تتمنى بحرارة أن يصبح ناظم عسكريا، وتحديدا، ضابط بحرية، ودون شك فإن طموحها يذهب الى حد أن يصبح أميرالا يتفوق مجده على مجد (باربا روس حير الدين) نفسه! وهكذا درس في المدرسة البحرية في (هيبلي علي)- وهي جزر الأمراء في عرض البحر المقابل لأسطنبول- فيما كان يكثر من كتابة قصائد يصور فيها غالبا بطريقة أو بأخرى البحر والموت والوطن. في هذه الفترة كانت جليلة هانم موضع تغزل كثير من قبل الشاعر الرمزي العظيم آنذاك يحيى كمال (1884-1958) الذي يمكننا القول عنه أنه كان أفضل شاعر في الجيل السابق لجيل ناظم حكمت الذي كان يشعر بالغيرة الشديدة على أمه، فهل كانت هذه الغيرة هي التي دفعته الى السعي للتفوق على منافسه في حب أمه شعريا؟ لقد تفوق عليه حقا ولكن فيما بعد. ترددت جليلة هانم في الزواج مجددا فقد كانت

إمرأة ذات شخصية مستقلة، وقد أرهقها خنازير مركب كاديكوي ومقصورة النساء للدرجة الأولى، فإختارت بدلا من ذلك أن تسافر لوحدها الى باريس لدراسة الرسم وهو ما قامت به تاركة أطفالها عند زوجها. إنقسمت مشاعر ناظم فهو يتفهم ضجر أبيه الذي أعيته شخصية جليلة هانم المتهورة، كما يتفهم أيضا نفور أمه من حياة بليدة مع زوج يشغل منصب (مدير صحافة أسطنبول)، لقد كان يتفهمهما ولكنه كان يعاني من تفهمه هذا، فهو يعيش حياة يتيم على نحو ما، غير أن ناظم حكمت كان يوجد لديه جيش من العمات وبنات الأعمام وصديقات العائلة وكلهن جميلات جمالا باهرا ويتنافسن على معاملته بلطف لينسينه غياب أمه، ومن ناحية أخرى، حصل على عزاء آخر بنشر أشعاره. كانت المجلات تقدر شعره، وحاز على شبه شهرة بقصائده الوطنية أحيانا، والملغزة أحيانا أخرى، والغرامية في أغلب الأحيان، غير أن إضطرابه ونفوره من اسطنبول كانا شديدين.

كانت المدرسة البحرية بؤرة تحريض سياسي ولم يكن لأحد فيها حديث غير السياسة، والشؤون السياسية شغل الجيش الشاغل منذ (سالونيك) وتأسيس (الشبيبة العثمانية) وربما قبل ذلك بزمن طويل. لم تنفع محاولات الإصلاح المتتالية للجيش والبحرية أبدا. كل هذه الأحداث والشعور بالوحدة زعزعت صحة ناظم، وزادت عليها مضاعفات رئوية فضلا عن أن الإنضباط العسكري لم يكن يناسب طبعه وكان يثور دائما على بلادة الأنظمة. لقد جاء مرضه في الوقت المناسب لأن الضابط الشاب المتدرب ((على سطح السفينة)) رقن قيده أخيرا من كادر أصحاب الرتب العالية للأسطول مستقبلا. أميرال خاسر، وشاعر رابح. لا يهم ما دام الأسطول لم يعد موجودا عمليا فقد أغرق وهزم وما بقي منه أصبح تحت رحمة المحتل. كانت المضايق، والبسفور، وسواحل البحر الأسود، وبحر مرمرة، والبحر الأبيض المتوسط كلها تحت رحمة مدافع الأساطيل الأجنبية. لم يعد الضباط والمدراء يتقاضون مرتباتهم. إن كان الإذلال والهزيمة والإحتلال قد أثارت المشاعر الوطنية فإنها قد أظهرت الوعي الطبقي أيضا. إن أسطورة بحارة المدرعة بوتمكين في البحر الأسود، وملحمة بحارة البلطيق في سانت بطرسبورغ، وإنتفاضة البحارة السبارتاكوسيين في ألمانيا، وأحداث تمرد الأسطول الفرنسي في البحر الأسود لم تمر دون أن تلاحظ في (هيبلي آدا). هذه الهيجانات في الخارج خلقت إنتفاضات معادية للعسكرتارية والإمبريالية. من المفيد أن نعرف أن أوائل الإشتراكيين

العثمانيين كانوا قد طبعوا جريدة (الإنسانية) Insaniyet منذ عام 1910 وكانوا ناشطين بين العمال وبحارة ورش صناعة السفن، وكان ناظم ككثير غيره من الشباب يسعى الى فهم الزلزال الإجتماعي الذي زعزع العالم. كان الرد في تركيا حيث شهد الناس قمع المضطهدين لابد أن يتخذ شكل الكارثة، وهذه الكارثة تشمل بإمتدادها المدينة كلها، وكانت اسطنبول في العشرينيات مدينة فسخها الجوع الذي ألم بأغلب الناس إزاء رفاهية قلة قليلة، والجيش المحتل، والدعارة، ووضاعة السياسيين.

ناظم حكمت في البحرية

*****

لم يستطع الشاب المتلهف للمطلق، الذي هو ناظم، أن يخضع لهذا الواقع. ثم ما فائدة أن يكون بحارا على سطح أسطول شبح، أو بيروقراطيا، أو شاعرا في مدينة ضائعة؟ يا له من

إذلال لا يحتمل! إن فرصة تركيا الأخيرة ستكون على سطح الأرض وليس على سطح البحر. هذا هو ما إقتنع به ناظم. تكونت كيفما إتفق شبكات مقاومة، كانت المجاميع التي تقوم بأعمال الإستنزاف وسرقة السلاح والدعاية مكونة من الشباب غالبا. كان إنضباط قوات الإحتلال، الجنود الإنگليز والايطاليين والفرنسيين وقواتهم الإستعمارية، مدعاة لغيرة هذه المدينة (هيبلي آدا) المليئة بالروس البيض واللاجئين البلقان، والنساء المحجبات، ومنارات الجوامع، والمواخير التي يعاقر فيها الشاربون العرق بشراهة ويدخنون الحشيش بإستمرار، المدينة التي تغنى فيها الأغاني الحزينة بكل اللغات. في تلك الفترة بالضبط كان يوجد هناك (بريفير) و (مارسيل دوهاميل) وكان من الممكن أن يصادفا صبيا فضوليا يعتمر طربوشا عتيقا رخوا مثقبا، بلا لحية ولا شاربين، يسعى الى العراك وهو يعنف الجنود الأجانب بفرنسية متقنة. لم يكن هذا الصبي المتهور سوى ناظم حكمت.

لم يعد يلاحظ الناظر اليه شيئا من مظهر الغندور المتأنق طالب المدرسة البحرية، لقد استحالت ملابسه وحذاؤه الى أسمال، كانت مشية البحار وخطواته السريعة التي إعتاد أن يسير بها على جانب السفينة، وإشاراته، ولعناته يمكن أن تعرضه الى الإشتباه في أنه جندي أسكتلندي فار سكران أو ما لا يعلمه إلا الله. كان دائما يسير على رأس مجموعة من الصبية المليئين تصميما، ينتزعون علما إنگليزيا من هنا أو بيانا لقيادة الحلفاء من هناك، ويسعون لسرقة السلاح. أقاموا علاقات تنظيمية وأخذوا يحوكون المؤامرات، وكانوا يتمتعون بإطلاع كاف ويغطي على تحركاتهم الحشد الخليط من الناس لحسن الحظ. رغب ناظم حكمت في الهرب من هذه المدينة التي تتفسخ كسمكة ميتة على الساحل. يجب الفرار من هذه المدينة. أصبحت الأناضول بالنسبة الى ناظم موضع الأمل منذ عام 1919 . كان مصطفى كمال ورفيقه الأقرب فؤاد باشا (أحد أخوال ناظم) قد غادرا الى الأناضول لتنظيم الثورة الفلاحية. في هذه الأثناء كان الدور الذي لا يستهان به لحركة المقاومة في اسطنبول هو سرقة السلاح ونقله عن طريق البحر الى الداخل، وقد نفذت الشبكات بنجاح ليس نقل السلاح فقط بل والكوادر العسكرية والمدنية الشابة أيضا. إختفى ناظم من بيته شتاء عام 1920 ، وجد أبوه على منضدته قصيدة يبدو أنها تعني أن ناظما أعد لمغادرة بلا رجعة، كان يتحدث فيها عن قضية الشبيبة، والأناضول، والصراع الدامي. أخيرا وصلت بطاقة بريدية أحالت الظنون يقينا

((والدي العزيز.... نحن في أنبولو منذ يومين، صحتي جيدة جدا، سنغادر الى أنقرة خلال يومين أو ثلاثة أيام ربما !)) تبع ذلك توجيه التحيات الى الجميع ثم ((مرت رحلتنا في البحر الأسود على خير ما يرام. هنا يمكن للمرء أن يتصور أن الفصل صيف، الطبيعة جميلة جدا)). سأقول لكم كيف جرت الأمور. تحدد يوم المغادرة في الأول من كانون الثاني. كان ناظم يحمل في جيبه أوراق هوية مزورة حولته الى تاجر بيض! يا لها من فكرة! وصل الى الموعد متأبطا صرة ثياب. في الأول من كانون الثاني عام 1921 صعد ناظم وصديقه (ولع نور الدين) الى ظهر (العالم الجديد) وهو قارب بخاري متواضع لا يوافق إسمه مظهره. سرعان ما أبحر (العالم الجديد) كما في الرسوم الساذجة التي تزين جدران مقاهي ميناء گالاتا وهو ينفث دخانا أسود كثيفا بوجه برج لياندر تتبعه عن كثب دلافين تثير الأمواج.

كان مصطفى كمال، قبل ناظم حكمت، قد إستقل قاربا مشابها إسمه (شمشون) بإتجاه البحر الأسود بحجة مهمة تفتيشية. علم الكولونيل (بينيت) قائد المخابرات البريطانية في اسطنبول بتحضيرات مريبة لكن رؤساءه لم يحملوا معلوماته هذه على محمل الجد (هذا الكولونيل الهاوي للغنوصية والصديق الكبير لغورجييف تحدث بمرارة عن هذا الموقف في مذكراته) فقد غادر مصطفى كمال للإلتحاق بالفلاحين الذين حملوا السلاح عفويا مكونين في مناطق معينة بؤرا لحرب العصابات. كان بإمكان ناظم، وهو يستند بمرفقيه الى درابزين القارب، أن يتصور مشاعر النفور التي إعتملت في نفس مصطفى كمال وهو يغادر المدينة. السلطان محاط بمتملقين ضعفاء، والمدينة في أيدي سياسيين متواطئين، ومنتفعين من الحرب، هذا العالم كله محكوم عليه باللعنة حكما لا ناقض له، لا يفصح عن نفسه، يباع ويشترى. لا بد من التخلص منه بأي ثمن... لا بد! لم يكن يوجد، سواء على الجانب الأوربي أو على الجانب الآسيوي، غير الأوهام، والإخفاق، والفضائح، والخيانات التي تتوالى أمام ناظري الشاعر وهو مستند بمرفقيه الى الدرابزين. إنه يعلم بما هو نقيض بهرجة القصور التي ضربتها الأحداث، ويعلم بما داخل البيوت الصغيرة المتداعية حيث تتجسد المقاومة، وحيث تشكل تنظيماتها، وتخبئ سلاحها وغضبها. لكي نحلل الأمور بطريقة ناظم قرية بعد قرية، ومدينة بعد مدينة، تأريخ كل مسكن وحكاية ساكنيه، فإن البسفور يتكشف لنا عن قصة تأريخية مصورة واحدة نقلب صفحاتها صفحة بعد صفحة.

كان في هذه الأثناء يستحضر بأسى وجوه الفتيان الأليفة، وجوه الأهل، الفتيات والأصدقاء الذين لا يعلمون برحيله السري. إن رحيله سيخلق مآسي، فليكن! لا بد من الرحيل. بدأ اللسان الساحلي يكبر مع إقتراب القارب، ويتقدم شيئا فشيئا للقاء (العالم الجديد). بحر بلون الحبر يبتلع دوامات الثلج التي تأتي بها (البوراز) ريح الشرق، ريح أوديسا الثلجية التي أصبحت تحت سيطرة البلاشفة، ترمي هذه الريح بنفسها في المضيق الذي يوصل الى اسطنبول، وهي تهز القارب. إتخذ ناظم الطريق نفسه بعد 29 عاما على زورق سريع ولكن الفصل كان صيفيا رائقا. كان الصديقان معا أيضا كما كانا على ظهر (العالم الجديد)، وكان ناظم يرى من جديد، لمرة أخيرة، المناظر الأليفة تمر من أمام عينيه. في هذه المرة رأى أبنية الإسمنت تحل محل أبنية الخشب، أخلى معمار المساكن العثمانية القديمة مكانه للأبنية باهتة الذوق، لقصور الأثرياء الجدد الذين ظهروا خلال الحرب العالمية الثانية. لكن المنازل الفقيرة كانت هذه المرة أكثر عددا، وأكثر تداعيا من أي وقت مضى. وصلت البرجوازية الى السلطة مع (الحزب الديمقراطي). لقد أثار حنقها، وهي تنعم بالسلطة، أن تضطر الى إطلاق سراح الشاهد العظيم المزعج الذي هو ناظم حكمت. أعدت له إنتقاما متحججة بعدم إدائه ((الخدمة العسكرية)) وهو في الخمسين من العمر! وجد Angina pectoris صعوبة في التلاؤم مع تمارين الأفواج الخاصة التي يخصون بها ذوي العقول العنيدة. كان يمكن التخلص منه، حسب رأي البوليس السري آنذاك، بطرق أخرى. لقد تخطى ناظم بجدارة أول فخ أعد له ولكن لم يعد يوجد متسع من الوقت ولا بد من التحرك. كان ناظم يعرف أن الحزب الديمقراطي يعد للقمع وسرعان ما يقوم من جديد بإعتقال اليساريين متذرعا بشتى الحجج. في تلك الظروف فكر ناظم أن الوقت حان لخلق معارضة في خارج البلاد، رأى أنه قد حان الوقت لهجرة يمكن أن توصل صوت الإشتراكيين الأتراك وتحرك الرأي العام العالمي. في ذلك الوقت بالذات وجد نفسه تحت مراقبة دائمة من قبل أكثر عناصر دوائر البوليس حنكة مدنيين وعسكريين. لكن هذه المصاعب مهما بلغت فإنها ليست بذات بال مقارنة بمشكلته الشخصية، لقد كان يحب زوجته الشابة وأم ولده محمد المولود حديثا حبا جما ، ولا جدال في أن إصطحابه لهما معه في هربه سيكون ضربا من الجنون. هذا وهو لم يكد يخرج من السجن ويعتاد على السعادة والحرية (النسبية) فهل كتب عليه أن يبتعد مكرها عن كل هذه الحياة، أن يقطع مرة أخرى بضربة واحدة حبل مرساه ويذهب الى عرض البحر؟

أبحر ناظم ورفيقه وهما يتناوبان على القيادة، وينزلقان على الأمواج الصغيرة القاسية، ويحتسيان القهوة، بإتجاه فارنا. حدثت الأمور في هذه المرة الثانية بشكل مختلف، ولكن لا يهم، لقد وجد ناظم البحر الأسود المتواطئ مع هروبهما، وساحل الوطن، أما المخاطرة فقد تقبل نتائجها. بعد كل شيئ ألم يكتب قصيدة يقول فيها ((أريد العودة الى البحر/أريد أن أموت في البحر)).

نزل ناظم ورفيقه (ولع نور الدين) من المركب في (أنيبولو) مع مهاجرين سريين آخرين، شاعرين متواضعي الموهبة، ومغامر مهووس بالجنس، وبضعة أشخاص لا أهمية لهم. هناك تعقدت الأمور فقد كانت مخابرات المقاومة السرية المسماة ((المنظمة الخاصة)) قد أقامت سيطرة ثانية في هذه المدينة الصغيرة لكي تعزل ((الحبة السليمة)) من ((الحبة المتعفنة))، يعني تقوم بتحقيقات ومطابقة معلومات ومراسلة مع مصادرها في أنقرة يمكن بها تجنب إندساس عملاء العدو السريين (قدر الإمكان). طال الإنتظار غير أن الشاعرين والمهووس جنسيا ردوا من حيث أتوا الى اسطنبول.

جذبت ناظم وولع حالا جماعة من بين الجماعات المتنافسة هي جماعة السبارتاكوسيين. لم تكن للقوميين والطورانيين أهمية كبيرة هناك أما السبارتاكوسيون فلهم قصة أخرى. كانوا بحكم دراستهم في ألمانيا يتحدثون عن روزا لوكسمبورغ والصراع الطبقي وعن أشياء كثيرة أخرى بدت في غاية التعقيد. كان الناطق الرسمي بإسمهم وهو شخص غريب الأطوار يعتبر أن (أخوية Ahi الأناضولية) تمثل الحزب الشيوعي. وجد ناظم، رغم جذوره الفكرية الوطنية، أن السبارتاكوسيين مثيرون للإهتمام ويمكنه أن يناقشهم حول أفكار شخص معجب به هو (أوغست بلانكي).

كان ناظم يتجمد بردا أثناء إنتظاره وقد إشترى طربوشا Kalbak ضخما طويل الصوف تخرج منه خصلات شعره الأشقر المحبب، وكان يرتدي أيضا سراويل قديمة صوفية سميكة للفروسية إشتراها بقروش قليلة وقد أفادته فيما بعد فائدة عظيمة خلال المسيرة الطويلة التي قام بها عبر الثلوج الأناضولية. أما ولع، وهو مثقف مرح يرتدي عوينات سميكة، فقد كان يعتمر طربوشا (سيميلي أستراخان) من صوف الحملان يزيد وجهه المعلم بضربة سكين طولا. كان ولع يكتب هو أيضا قصائد، قصائده جيدة أيضا ولكنه لم يثابر في طريق الشعر ولا في طريق

الثورة. كان أيمانه الوحيد هو الصداقة. لقد ظل الصديق المخلص لناظم الذي غفر له تركه الشعر وتخليه عن الثورة.

دبر الصديقان أمرهما بالفلوس القليلة التي كانت تكفيهما بضعة أيام لإحتساء الشاي الأسود (دم الأرنب) وأكل الخبز اليابس الى أن وصل من أنقرة أخيرا (جواز المرور) ومظروف فيه قليل من المال، وكانت تلك هي المغادرة الكبرى في حياة ناظم حكمت مثلما هي الإنعطافة الحقيقية في الأدب التركي. قبل أن يسير في طريق أنقرة أرسل ناظم رسالة ((الى البيت)) والرسالة موجودة عندي وهذه بضعة سطور منها ((والدي العزيز.. سنغادر غدا باكرا (أنيبيولو). لقد أعيد إثنان من أصدقائي من (أنيبيولو). بقيت أنا وولع نور الدين. صحتي ووضعي في أحسن حال. إن الناس هنا في غاية اللطف معنا. سد الثلج الطرق منذ بضعة أيام وهذا من حسن حظنا لأننا سنستطيع سلوك الطريق دون خشية من الوقوع في مشاكل)) يتبع هذا أحاديث طمأنة وإعتذارات وتحيات الى الجميع، ثم هذه العبارة ((والدي العزيز، أتوسل اليك، إرسل لي عنوان أمي)) كانت أم ناظم قد عادت من باريس، ولكنها تعيش في عالم منفصل.

إن سقوط الثلج قد جعل الطرق في الواقع خطرة وغير سالكة. أفلح الصديقان في هذه الأثناء إقناع بغّال وبعض المتهورين أن يجربوا المغامرة مثلهما. حمل البغل أمتعة المسافرين فيما سار هؤلاء على شكل طابور هندي. أقدامهم محمية، على طريقة الفلاحين بطبقات متناوبة من الصوف واللباد. كان ناظم يغني مرتجلا شعرا وهو يتوغل في الثلج. تسلقت القافلة الصغيرة ببطء كبقعة داكنة التلال التي تشرف على المدينة. إختفى الميناء عن أنظارهم في الأسفل فيما كان على المسافرين أن يدوروا نحو أعالي السهل الأناضولي الأماكن الأكثر صعوبة في التسلق. ران على القافلة الصمت. لكن ناظما كان صامدا. تقدم المسافرون كنقاط ضئيلة وعنيدة فوق المنحدرات البيضاء اللامتناهية شيئا فشيئا. إستمرت المرحلة الأولى ثماني ساعات، عبروا غابات تنوب شاسعة تنوء بالثلج وكانوا، وهم يمرون بمحاذاة قرى ذات منازل ما قبل التأريخ، يصادفون أحيانا فلاحين بملابس سميكة متهرئة.

وصلوا أخيرا منهكين الى خان حقير آووا اليه في الليلة الأولى وقد حصلوا من المبيت فيه على هدية لا يمكن تجنبها، حشد من القمل يرافقهم الى حمام (كاستمانو). إستطاعوا كيفما

إتفق أن يتخلصوا منه بعد يومين ولكن كان لابد من الإستمرار في المسير الذي أصبح مؤلما أكثر فأكثر ليصلوا هذه المرحلة. إن جاذبية (كاستمانو) الوحيدة كانت هي بيت بغاء مسكون بالأشباح، بعد ذلك، في اليوم التالي حضر المسافران مشهد محاكمة أقامها أنصار الإستقلال حكمت حكما عاجلا بالشنق الفوري لأحد أعوان السلطة. تابعوا طريقهم في اليوم الثالث سائرين على الدروب الميسمية حتى مدينة (سانكيري) . غطت الثلوج على طول الطريق تقريبا القرى التي كانت تعلن عن وجودها أحيانا بالدخان الذي يرتفع من مستوى الأرض الى السماء لونا رماديا قاتما.

كانت تتوافد مجاميع صغيرة الى أنقرة مارة بسانكيري حيث تصل أصداء الجبهة نتفا من خلال اللقاءات في المقاهي. لم يكن شيئا غريبا أن ترى في تلك الكتلة التعيسة التي هي سانكيري شيئا يعمل غير السجن وخان مهدم وبضعة دكاكين. إن جغرافية القدر التي لا تكف عن الدوران قادت ناظم فيما بعد الى سانكيري، وكان هذه المرة سجينا شيوعيا محكوما بالسجن 28 عاما. لم يكن ناظم عند مروره الأول بسانكيري قد أصبح شيوعيا بعد، إلا أن بذرة ما كانت قد نبتت في داخله، أمل بتغيير جذري، كان كل شيء برأيه يحتاج الى إعادة خلق... الشعر، والعالم، وكان هو مقتنعا بذلك. مما يبعث على الدهشة أن أشعاره تغيرت منذ أن وطأت قدمه أرض الأناضول، تحولت الى أشعار محكمة، عنيفة.

ناظم حكمت في المنفى بعيدا عن عائلته

*

كان التمرين الأول الذي قرر أن يجريه ناظم وولع هو كتابة قصائد من وحي الطبيعة، كلمات وأساليب تعلمها ناظم بوحي من أمه تقوم غالبا على الحافز المباشر. تطورت المرحلة الوصفية سريعا خلال المرحلة الأناضولية (ما قبل المستقبلية)، وأعلنت حرية التعبير وصيغة اللغة المحكية الإصطلاحية في عبارات مثل ((نحن نبيع أم التعب))* إن بيع الأم Vendre la mère هو تجديف مألوف في أحياء اسطنبول الشعبية، رطانة ألحقها ناظم في قصيدة قصيرة كتبت في الطريق، في مكان ما بين كاستمانو وبين سانكيري.

لقد صمد ناظم صمودا رائعا في عبوره الأناضول قياسا الى وضعه كصبي ضعيف الرئتين. كان هذا (الهيبي) قبل أن يكون للهيبيين وجود والمرتدي الكالباك يجعل المحيطين به يشعرون بوجوده بينهم، كان لا يعرف التعب، يلقي الخطابات، ويطالب، ويضحك مقهقها وهو يميل الى الخلف. وجد في سانكيري، وقد أنهكته الرحلة، مع أنه أتمها راكبا عربة شبيهة بعربة ترويكا (عربة روسية تجرها ثلاثة أحصنة) تسمى Yayali ، مجموعة من السبارتاكوسيين وجماعة آهي Ahi وهم أتباع الدكتور صادق آهي ((الملهم)) والعالم المطلع الذي عاود إلقاء دروسه الماركسية المتجولة فيما كان ناظم يستعجل الوصول الى أنقرة. في ذلك المكان توصل الى قرار الإشتراك في الحرب على الإمبريالية، هناك أراد أن يحقق ذاته دون أن يضيع دقيقة.

رفض البغال المضي الى أبعد، وإتفق السبارتاكوسيون على العودة من حيث أتوا رغم نصائح ناظم لهم ونداءاته بالثبات وقد كان يرتعش من اللهفة الى المضي قدما. قطعت الجماعة الجديدة باقي الطريق ، دون أن تستطيع إيجار مركبة أخرى، سيرا على الأقدام بخطى سريعة نحو أنقرة. ظهرت المدينة أخيرا محاطة بالتلال وبرز قاسيا عاليا هيكل القلعة القديمة على صخرة عظيمة. تمتد المدينة أسفل منها في حفرة ثم تنحو الى الصعود متناثرة بميلان خفيف نحو بساتين سانكايا حيث يقيم مصطفى كمال في مكان ما يحرسه رجال لازيون من البحر الأسود يرتدون ملابس وعمائم سود ومدججون بالسلاح. كان لمنازل أنقرة القديمة مظهرا شكسبيريا بعوارضها الخارجية المتقاطعة على طراز (تودور) وحيطانها المغطاة بالجبس الملون بالأبيض والوردي. كانت هذه المدينة تحتفظ بآثار العمارة الرومانية، كانت هي مقر طريقة الحاج بيرم الصوفية وهي طائفة من القرن الخامس عشر أسست جمعية الخيرات التي

كانت تزرع جميع الأراضي بشكل جماعي، وهناك أيضا حول القلعة كان يستقر أنصار آهي التي كان لها دور حاسم خلال صعود السلالة التركية العثمانية.

بإختصار.. إن المكان الذي إختاره مصطفى كمال ليقود المعارك منه ويعيد تنظيم البلاد لم يكن إلا ضيعة كبيرة ولكنها ضيعة كانت تجري فيها أمور ضد السلطة العثمانية منذ قديم الزمان. كدت أنسى أن أقول أن تيمورلنك هزم ثم سجن (بايزيد) في قفص وضعه على عربة كبيرة، وهناك أيضا سوت قوات القسطنطينية مدعومة من قبل إنجلترا حسابها مع مصطفى كمال و ((المسألة الشرقية)). لقد إقتربت فعلا من أنقرة ولم تكن المدينة محمية ولكنها لم تحتلها. كان ((المؤتمر الوطني الواسع)) المكون من وجهاء وقادة أحرار وبضعة سياسيين وعسكريين قدموا من اسطنبول يستولي عليه الجنون أحيانا خوفا من الخطر الداهم. طمأنهم مصطفى كامل واحدا واحدا، بصوته الحجري، المعتاد على القيادة، وهو يرتدي الملابس المدنية، مطلقا الوعود والوعيد، وهو ينظر بعينيه الصافيتين، الحولاوين قليلا، بحيث لا أحد يعرف على وجه التحديد الى أين ينظر. في الحقيقة أنه لم يكن ينظر الى شخص بعينه بل كان يراهم جميعا، بالجملة، لأنه كان يعرف عالمه كأنه عند أطراف أصابعه، يعرف الحجج، والمتكلمين بها، والأفندية، والبهوات، والباشوات، يوبخهم كما يوبخ المعلم التلاميذ في صف كثير الشغب. في الحقيقة أن مكان إجتماع ((المؤتمر الوطني الواسع)) لم يكن إلا مسرحا محليا وكان الوزراء يستقرون كيفما إتفق لهم، في مخزن للغلال، أو في فندق، فللضرورة أحكام. في وسط هذا الهيجان كان مصطفى كامل، رزينا، سارحا تقريبا، أكثر أناقة من لورد انكليزي، يقوم بفرز برقياته، ويرتب استراتيجيته، وينسق سياسته، ويعد خطاباته، يكون أحيانا أمام خرائط قيادة الأركان، وأحيانا أمام موائد خمر الياكي مع ضباطه ومدعويه المدنيين، يناقش دائما. تكفيه بضع ساعات من الراحة لكي يخرج اليهم مجددا، شيطانيا، وجذابا، يرتدي (الباشا) غطاء رأس، ومعاطف فرو، ودثارا للكتفين، والسترة الردنغوت الطويلة مفتوحة الذيل، أو سترة الرياضة، كأنه يتبع حكمة بروميل ((الأناقة الحقيقية تسخر من التأنق)).

حدثت أول مآسي مراهقته حين كان في السادسة عشرة. هذه هي الرسالة التي تتحدث عن تلك الفترة :

((أمي ... أنا راحل، ربما لن أعود أبدا ... لأنني سمعت من يقول، أو بدقة أكثر، أنت أسمعتيني، بأنك ستنفصلين عن أبي. إذا انفصلتما كونا على يقين بأنكما لن تريانا أنا وسامية بعد ذلك مطلقا. أتوسل اليكما أن تصبرا)) (لقد عنى برسالته هذه تهديدا مبطنا بالانتحار) وتنتهي الرسالة بعبارة ((إبنك الذي يكافح بين السعادة والتعاسة)) عام 1918.

إن التمزق الذي أثر عميقا في حياة الصغير ناظم يوجب علينا أن نبين بعض التفاصيل الدقيقة عن عائلتي أبيه وأمه. يتصل نسب ناظم من جهة والدته جليلة هانم بواحدة من العوائل العثمانية الكبيرة، وأشهر أسلافه فيها هو الكونت بروجينسكي وهو بولوني كافح من أجل استقلال بلاده ضد القيصر الى جانب الجنرال بن، وحين هزم توجب عليه اللجوء في تركيا حيث أصبح باشا وإعتنق الإسلام، هذا الرجل ليس سوى المارشال محمد علي باشا نفسه. يوجد سلف آخر لناظم من جهة الأم أصله فرنسي وينتسب الى عائلة (هيغو نوت)، هاجر الى ألمانيا أول الأمر ثم اختار أيضا أن يكون تركيا. إن زوجتي هذين الرجلين اللذين خاضا معارك يائسة في آسيا، وأوربا، وأفريقيا، كانتا نشطتين ومثقفتين.

إن أي روائي عظيم لم يكتب بالتركية رواية كرواية (الحرب والسلم) ، يا لها من خسارة! لم يكن العالم العثماني، وهو يقترب من نهايته، يمثل شيئا لأي كاتب. مع ذلك ففي عوائل كبار الموظفين والضباط، والحكايات الرومانسية، والآمال المهجورة، وقصور اليالي (اليالي منازل كبيرة ساحلية على البسفور) الشبيهة بسفن ذات سطوح عالية، على طول الشواطئ، على الجانب الأوربي، وعلى الجانب الآسيوي، ولدت شخصيات كثيرة كالنمل من كل نوع تبادلت فيما بينها الحب والبغض بجنون. هناك حيث العلاقات بين الرجال والنساء ، وتعدد الزوجات، تمفصلت على نمط من الحياة أكثر تعقيدا من الحياة في الغرب خالقة ((مسرحة)) بتراكيب يصعب إدراكها. لم يحتفظ لنا النثر، وهو يعلن عن نفسه آنذاك متأخرا، بشئ من هذا رغم أن هذه المنازل الفسيحة كانت تشكل مشاهد بديعة بعدة مسارح، وأكاد أقول مسارح بعدة مستويات، حيث تدور المآسي والمهازل التي لانهاية لها في الوقت نفسه بإخراج بانورامي وبممثلين صامتين كثيرين، طباخين، طباخات، خدم، بستانيين، حوذيين، وأهل غامضين. إن الشخصيات الرئيسية كانت محاطة بحشد متنوع من الممثلات الصامتات. لقد اكتسب الصبيان الصغار في هذا النمط المغلق ميلا مبكر النضج، وأكاد أقول ميلا مفرطا، نحو النساء. إن

الأواصر مع العالم الخارجي كانت صعبة، ولكنها كانت موجودة من بيت لبيت ومن شاطئ لشاطئ. لقد خضع مجرى الحياة من الأعلى ومن الأسفل لمزاج السلطة، لمزاج السلطان، لمتطلبات السياسة، لرغبات أثرياء السلاح ، لمؤامرات الدولة التي تحمل بصمات أجنبية، لهذا كانت غالبا ما تتغير الأوضاع كليا من حال الى حال. لا يوجد ما يكفي من حسن الحظ تحت نير الطغيان الشرقي، وكما في الروايات الروسية الكلاسيكية يستشف القارئ وجود الفلاحين والشعوب المستغلة استغلالا وحشيا في مكان ما، على مبعدة، في خلفية الرواية.

ناظم حكمت في السجن

*

كان الجد الأكبر لناظم وهو ناظم باشا غالبا ما ينفى بعيدا عن اسطنبول للشك بوجود علاقات له مع المعارضة الدستورية. نعم كان النفي بلقب حاكم ولكنه لم يكن ليخدع بهذا اللقب فقد كان السلطان عادة ما يلجأ الى هذه الطريقة حين يضطر لسبب ما الى معالجة أمر شخص

فيعاقبه بهذا الشكل. كان ناظم باشا مثقفا، مدني التفكير من المستوى الراقي، حاكما وعضوا في طائفة الدراويش الدوارين، ينظم الشعر أحيانا، وخبيرا في نظم شعر الأحاجي.

حين آن الأوان لتزويج الإبن حكمت ناظم بك فإن زوجة الباشا هي التي رتبت أمر الزواج جريا على التقاليد، يعني رسمت بورتريه–روبوت ((للفتاة التي يرغب فيها ابنها)) وشرعت ببحثها بالطرق الملائمة، أي بعمل تقص واسع، وحسب التعبير الخاص بهذا العمل، تغادر بيتها لتمارس عمل ((البصاصة)). كان حكمت ناظم بك صبيا جميلا، جيد الثقافة، ((من عائلة راقية))، صحيح أنه بلا ثروة ولكن المستقبل أمامه كدبلوماسي، اجمالا كان لا بأس به، وعلاوة على ذلك فهو يتكلم الفرنسية، إذ كما تقول شخصية من شخصيات قصة (زواج) للكاتب غوغول بخصوص الزوجة ((وهل تعرف الفرنسية؟)) كانت معرفة الفرنسية ميزة مرموقة.

حسن... لقد وجدت زوجة الباشا الطير النادر، مخلوقة شابة جميلة يمكن السيطرة عليها، ((من عائلة عريقة))، تجيد العزف، وتكتب الشعر، والأهم من هذا كله، تتكلم الفرنسية.. كدت أنسى أن أخبركم بالجوهري.. كانت تمارس الرسم أيضا.

كانت قبيلة جليلة آدين باشا ذات ميول غربية أكثر من قبيلة ناظم باشا لكن القبيلتين كانتا تشتركان في أنهما مكونتان من أناس ذوي شخصيات مميزة ويتصفون بصفات حميدة. إذن أعطيت يد جليلة إكراما لناظم باشا، وغادر الشابان رأسا الى (سالونيك) حيث كان لحكمت بك منصب ((مهنة)). في سالونيك ولد إبن حكمت ناظم، ناظم حكمت، جاء الى العالم عام 1902، وقد سمي بإسم جده الحاكم ناظم باشا.

سالونيك.... إذا ما عدنا الى الماضي البعيد نجد أنه هنا في سالونيك استولى على السلطة الكومونيون الثوريون الزيلوتيون الناطقون بإسم المضطهدين البيزنطيين، ولكن استلام السلطة هذا لم يكن له أن يدوم في ظل العثمانيين. في هذه الحاضرة التي يسكنها فلاحون وحرفيون يونان وألبان وأرمن وتجار وعلماء يهود (أشكنازيون وسيفارديون) وبلقان عنيدون يديرهم موظفون كبار وضباط جاءوا من كل حدب وصوب، كانت هذه المدينة تغلي بالأفكار ومشبعة بالتبادل الثقافي. قبل الحرب العالمية الأولى جعل الشهيرون ((الكوميتاجيون)) البلقان،

و((الشبيبة العثمانية)) ثم ((الشبيبة التركية)) وهم الاشتراكيون العثمانيون الأوائل من سالونيك مركزا لفعلهم السياسي. كان الجميع هنا في مسقط رأس مصطفى كمال (كمال أتاتورك) يتآمرون على السلطان دون هوادة قبل ولادة ناظم حكمت ببضع سنوات . حقا لقد شاءت الأقدار أن تكون سالونيك مسقط رأس شخصيتين تركتا أعمق الأثر على تركيا القرن العشرين...ناظم حكمت وكمال أتاتورك. مع ذلك فلم يتقاربا أبدا إذ أن تنافر خصالهما وإختلاف آيديولوجيتيهما حالا دون اجتماعهما. أبدى أتاتورك مرة لناظم رغبته في أن يسمع شيئا من شعره فكان جواب ناظم حكمت ((أنا لست أيستاليا المغرية ...)) وأيستاليا هذه مغنية مشهورة آنذاك.

فلنعد الى طفولة الشاعر.. سرعان ما قدم حكمت بك طلبا بالإعفاء من منصبه في سالونيك فقد أتعبته البيروقراطية في سالونيك، وغادر مع عائلته الى حلب حيث كان والده ناظم باشا حاكما آنذاك. كان (كوناك) وهو قصر الحاكم عالما مكونا من خدم ونساء وأهل وضباط ووجهاء يجيدون كسب ود الباشا، وقد كان هذا المعتنق لفلسفة جلال الدين الرومي مؤسسا لطائفة الدراويش الدوارين، رجلا عظيم اللياقة في سلوكه، متسامحا، مبتعدا، منعزلا على الأقل في قرارة نفسه بالقدر الكافي عن الوجهاء. كان شغوفا بالشعر كحفيده. أما بالنسبة الى ولده حكمت ناظم بك فقد اقتحم ميدان زراعة الحور. كانت أشجار الحور أمل العوائل العثمانية الكريمة في الثراء لأنها تنمو بسرعة وقد زرع حكمت ناظم بك منها عدة آلاف بفضل بيع جواهر زوجته. تخيل مسبقا أنهما ثريان، وأنهما يوزعان خشب غابته على جميع بلدان البحر الأبيض المتوسط ، ولكن غاب عن باله خطر الجراد الذي مرت منه غيمة على حلب أحالت نبتات الحور الى تراب، وما زاد الطين بلة أن ناظم باشا أعيد تعيينه سريعا في ديار بكر المقاطعة الشرقية البعيدة. توجب عليه المغادرة. قال ((ما أن أتينا حتى رحلنا.. فليبارك الله حلب!)). شرعت العائلة وأتباع الباشا بهذه الرحلة الطويلة، وقد كانت بمثابة حملة حقيقية مكونة من عربات تجرها أحصنة وعربة سفر فاخرة تجرها أربعة جياد وكانت توجد في القافلة أيضا دواب تحمل الأثقال. كانت ديار بكر منطقة يمتلك فيها البيكات الإقطاعيون الأكراد عشرات القرى، هنالك حيث الجفاف الأناضولي أشد من جفاف الأواصر الإنسانية. لقد كان السلطان يمقت ناظم باشا حقا. تخلفت في ذاكرة شاعرنا بقايا صور حصوية وقاسية، لأن الجد

كان كما يبدو يحب اصطحاب حفيده خلال جولاته الإعتيادية، كأنما حفرت في شبكية عين الطفل وجوه الفلاحين أو هكذا ظن ناظم على الأقل. حتى وإن كان والد ووالدة ناظم يشعران هناك بالملل حد الموت، شعرا به أولا في حلب ومن ثم في ديار بكر، فإن عدم تخليهما عن الباشا وتركه لمهماته الإدارية كان هذا على الأقل مبعث سرور لناظم، ومن جانب آخر فإن العادة المتبعة أن تتبع العائلة كلها الباشا الحاكم. ولكن مع من يمكن للزوجين الشابين التحدث بالفرنسية؟

عاشت جليلة هانم في ديار بكر، وهي التي اعتادت على أبهة البسفور في منزل مليء بالشخصيات الجذابة والمركبة، منطوية على نفسها مع زوج حطمت أعصابه البطالة. ظلت مشاريع المستقبل العظيمة غامضة. إن حكمت ناظم بك الذي كان يخشى من وضع نفسه في خدمة السلطان كان يفضل على ذلك ألف وسيلة ووسيلة لتكوين الثروة، ولكنه إذا بقي في هذه الزاوية الضائعة من العالم فلن يكون لديه شيء. دفعت جليلة هانم زوجها الى اتخاذ قرار. لم تتحقق العودة الى اسطنبول مع الطفلين ناظم وسامية وقليل من المال دون مشاكل. عادا من جديد الى اسطنبول والى البحر والأقرباء والأصدقاء عودة فيها عزاء لهما. كان الطفلان يحظيان بالملاطفات والتدليل والحلوى ويغرقان في اللعب وتلتقط لهما الصور، كما جرت عادة عوائل كعائلتهما، عند مصور البلاط (صباح و جوايه). اقتحم حكمت ناظم بك بمساعدة أقرباء أكثر ثراء ميدان تجارة الألبان. اشترى أبقارا وأجر مرعى، وحدثت المعجزة فقد سارت الأمور سيرا حسنا لبعض الوقت.

انغمر البك في مغامرات مع جميلات مشرقيات، وهو يرتدي طربوشا أحمر وسترة طويلة على رأس تجارة مكنته من ارتياد محل حلويات (ليبون) ومطعم ومشروبات (تذوق كونكورديا) و(قصر بيرا) وفندق (توكاتليان)، وقام برحلات الى ((أوربا)). سرعان ما كسدت التجارة المزدهرة. لقد كان مدى انتصار حكمت ناظم بك ومشروعه المستقل قصيرا. أضطر الى العودة، وهو مثقل بالديون ومدمر، الى وظيفة تركها مبكرا في وزارة الخارجية. هذا هو السبب الذي دفعه الى ايجار بيت صغير في (كاديكوي) وهو حي جذاب آنذاك يسكنه بشكل أساس بيروقراطيون لا يستطيعون أو لا يريدون السكن في أحياء (نيشان تاش) الجميلة أو البسفور البطريركي المفعم بتيارات الهواء. كان مناخ (كاديكوي) أكثر اعتدالا من مناخ غيرها. يمكن

الوصول اليها بثلاثين دقيقة من جسر (غالاتا) على مراكب بدواليب كالتي في بحيرة جنيف. إن ركوب المركب يسمح بالجلوس الى جوار السيدات الجميلات اللواتي يمكن استشفاف جمالهن رغم الخمار الذي يغطي وجوههن والملابس التي تغطي أجسامهن. على الرصيف تزيح الريح الخمار لبضع لحظات عن عيونهن وشفاههن وتلصق عليهن ثيابهن فيبين جمال أجسادهن. سرعان ما يقع مسافرو (كاديكوي) تحت رحمة سحر زوجة إبن ناظم باشا فيقفون على طريقها متخذين (بوزات) ويقومون بحركات بقفازاتهم وبعصيهم ذات المقابض العاجية.. ولكن عبثا يحاولون فالجميلة الرشيقة تختفي غير مبالية في ((حجرة سيدات الدرجة الأولى))، كانت حجرة الدرجة الأولى للسيدات عبارة عن صالون صغير مربع بمرايا حيث تكشف المسافرات عن وجوههن ويدخن سجائر رفيعة بطرف مذهب ويشربن القهوة وهن يثرثرن مثل طيور في قفص. خلال نصف ساعة من الحديث يصرحن بأسلوب فني، وهن يتأملن ويتبادلن الأخبار، بمكائدهن على الخلفية الملكية للمدينة والزرقة البحرية. إن محادثتهن، وهي بنصف نبرة وبنصف درجة ألوان، وتجري بتحفظ وتهذيب وحرص بالغ، لم تكن فيما تتضمنه من تلميحات ألا في أعلى درجات الضراوة. إن تركية اسطنبول على لسان سيداتها كانت بالنسبة الى ناظم الصغير دراسة جامعية في اللغة بكلماتها وانعطافات عباراتها وأسلوب كل واحدة منهن، وهو يجلس قرب أمه بعيونه الزرق المثبتة عليهن فيما كانت تنهمر عليه قبلات السيدات المسافرات الجميلات في الدرجة الأولى. هكذا كان قدره دائما أن يتلقى القبل، حتى في موسكو بعد موته سمحت الجنازة، التي تركت مفتوحة في مكان لا يمت بصلة الى قارب كاديكوي، للمعجبين الموسكوفيين، من المشاهير أو من عامة الناس، بمعانقة ناظم حكمت لأول وآخر مرة في الرابع من حزيران من عام 1963.

جثمان ناظم حكمت

==== عابدين دينو ==========

*** (هذه ترجمتنا الحرفية لعبارة Nous vendrons la mère de la fatigue ويقول هامش المجلة أنه يمكن ترجمتها بمقابل هو " نتبرز على التعب" ولدينا باللهجة العراقية معان بألفاظ مقاربة تعني الاستخفاف بالتعب والمصاعب ويبدو أن عابدين نقل المثل التركي المحلي حرفيا الى اللغة الفرنسية وطبعا لابد من أن لصيغة المثل جذر في الحياة الشعبية لا يمكن إلا لأهل البلد معرفته- المترجم)**

حقيبة أبي

أورهان باموق

أودعني أبي ، قبل وفاته بسنتين ، حقيبة صغيرة مليئة بكتاباته الخاصة ، ومخطوطاته ، ودفاتره . قال لي وهو يتخذ هيئته الساخرة المعتادة أنه يريد مني أن أقرأها بعده ، يعني بعد وفاته ، ثم ألقى نحوها نظرة منزعجة بعض الشيء وهو يقول ((ربما وجدت فيها شيئا يمكن نشره)) . كنت يومها في مكتبي محاطا بالكتب . تمشى أبي في الغرفة متلفتا حوله كمن يريد التخلص من حقيبة ثقيلة تعيق حركته دون أن يعرف أين يضعها . أخيرا وضعها بهدوء وصمت في زاوية من الزوايا . ما أن اجتزنا هذه اللحظة المخجلة قليلا حتى استعدنا لعب دورينا الهادئين الخفيفين المعتادين ، عدنا الى شخصيتينا الساخرتين المرحتين . تحدثنا

كالعادة عن أشياء لا أهمية لها ، عن مواضيع الحياة السياسية التركية التي لا انقضاء لها ، عن مشاريعه التي لم تنجز ، وشؤونه التي لم تفض الى مفيد .

أذكر أني ظللت أياما بعد رحيله أدور حول هذه الحقيبة دون أن ألمسها . عرفت منذ طفولتي هذه الحقيبة المصنوعة من جلد الماعز الأسود ، وقفلها ، وأركانها المبعجة . كان أبي يستخدمها لرحلاته القصيرة ، وأحيانا لنقل وثائق الى عمله . أذكر أني كنت في طفولتي أفتح هذه الحقيبة وأقلب محتوياتها التي تنبعث منها رائحة زكية ، رائحة ماء الكولونيا والبلاد الغريبة . هذه الحقيبة تمثل لي أشياء كثيرة مألوفة أو فاتنة من ماضيي وذكريات طفولتي . مع ذلك لم أستطع أن أقدم على لمسها . لماذا ؟ دون شك بسبب الأثقال الضخمة والغامضة التي يبدو أنها تنطوي عليها . أحدثكم الآن عن معنى هذه الأثقال : إنها تعني عمل إنسان معتكف في غرفة ، جالس الى منضدة أو في زاوية ، يعبر عن نفسه بواسطة الورق والقلم ، إنها تعني الأدب . لم أفلح في أن أمسك وأفتح حقيبة أبي ، لكني كنت أعرف بعض الدفاتر التي توجد فيها فقد رأيت أبي يكتب فيها. لم تكن تلك المرة الأولى التي أتحسس فيها كل الثقل المحتوى في هذه الحقيبة . كانت لأبي مكتبة كبيرة. أراد في شبابه أواخر الأربعينيات أن يصبح شاعرا . في إسطنبول ترجم فاليري الى التركية لكنه لم يرد أن يعرض حياته الى صعوبات حياة الشاعر في بلد فقير فيه القراء قليلون . أبوه ، جدي ، كان مقاولا غنيا وعاش أبي طفولة ميسورة ولم يرد أن يجهد نفسه من أجل الأدب ، كان يحب الحياة ومسراتها وقد تفهمته . إن الذي صدني أول الأمر عن الإقتراب من حقيبة أبي هو الخشية من أني لن أحب ما كتب . كان لديه شك بالتأكيد واستبق الأمر بملاحظته المرحة عن هذه الحقيبة . هذا الموقف آلمني أنا الذي أكتب منذ خمسة وعشرين سنة ولكني لا أريد أن أكلف نفسي مشقة التحمس لأبي الذي لم ينظر الى الأدب بما يكفي من الجدية .

خشيتي الحقيقية ، الشيء الذي أرعبني حقا ، هو احتمال أن أكتشف أن أبي كان كاتبا جيدا . هذا الخوف في الواقع هو الذي كان يمنعني من فتح الحقيبة ، ولم أفلح في الإعتراف لنفسي بهذا السبب الحقيقي ، لأنه إذا ما خرج من حقيبته عمل عظيم علي أن أعترف بوجود رجل آخر ، مختلف تماما ، في داخل أبي . هذا شيء مخيف . حتى في سني المتقدمة هذه أتمسك بأن أبي ليس سوى أبي ، وليس كاتبا . بالنسبة إلي أن يكون المرء كاتبا يعني

اكتشافا صبورا عبر سنين لشخص ثان ، مخفي ، يعيش في داخلنا ، وعالما يخفي حياتنا الثانية . تذكرني الكتابة في المقام الأول ليس بالروايات والشعر والتقاليد الأدبية ولكن بالإنسان المعتكف في غرفة ، المنطوي على نفسه ، الوحيد مع الكلمات ، وهو يضع أسس عالم جديد . هذا الرجل ، أو هذه المرأة، يمكن أن يستخدم آلة طابعة أو يستعين بحاسوب أو حتى ، مثلي ، يمكنه أن يقضي ثلاثين عاما يكتب بقلم وعلى الورق ، يمكن أن يدخن وهو يكتب ، يشرب القهوة أو الشاي ، ومن وقت لآخر يمكن أن يلقي نظرة الى الخارج عبر النافذة ، على الأطفال الذين يتسلون في الشارع – إن سنحت له الفرصة – على الأشجار ، على منظر ما، أو حتى على جدار غير حقيقي . يمكنه أن يكتب الشعر أو المسرحيات أو يكتب مثلي روايات . كل هذه التنويعات ثانوية قياسا الى الفعل الأساسي الذي هو الجلوس الى منضدة والغوص في الذات . إن الكتابة هي ترجمة هذه النظرة الى الداخل بالكلمات ، إنها العبور الى داخل الذات ، والإستمتاع بسعادة استكشاف عالم جديد بصبر وعناد . بينما أنا جالس الى منضدتي أضيف كلمة بعد كلمة على أوراق بيض ، فيما أقضي الأيام والأشهر والسنين أشعر بأني أبني هذا العالم الجديد كما يمد المرء جسرا أو يشيد قبة ، وأكتشف في نفسي شخصا آخر . الكلمات بالنسبة الينا نحن الكتّاب هي الأحجار التي نبني بها ، بتدبرها ، بتقييم كل واحدة قياسا الى غيرها ، بتثميننا لها أحيانا من بعيد ، وأحيانا بالعكس ، بوزنها ، وبالربت عليها بأطراف الأصابع أو بطرف القلم الذي يضع لنا كل واحدة في موضعها لنبني طوال السنة دون أن نفقد الأمل .. بعناد وصبر . إن سر مهنة الكاتب بالنسبة إلي لا يكمن في إلهام مجهول الأصل ولكن في العناد والصبر . إن التعبير التركي الجميل (يحفر بئرا بإبرة) يبدو لي أنه أُبتكر لنا خصيصا نحن الكتاب .

كنت خائفا من فتح حقيبة أبي وقراءة دفاتره لأني أعرف أنه لم يكن معرضا للصعوبات التي كان علي مواجهتها بنفسي . لم يكن يحب الوحدة بل الجلوس مع الأصدقاء والمرح بين الناس. لكني بعدها رأيت رأيا آخر . ربما كان الصبر والتقشف وكل هذه التصورات التي كونتها ليست سوى أحكامي المسبقة الخاصة مرتبطة بتجربتي الشخصية وحياتي ككاتب . لم نفتقر الى كتاب كتبوا وسط حياة متألقة صاخبة بحضور إجتماعي أو عائلي سعيد ومتين . فضلا عن ذلك فقد هجرنا أبونا ونحن أطفال ليتهرب بالذات من حياة عائلية كان غير راض عنها . رحل الى باريس حيث ملأ ككثيرين غيره غرفته في الفندق بالدفاتر . كنت أعرف أن في داخل هذه الحقيبة يوجد قسم من هذه الدفاتر لأنه خلال الأعوام التي سبقت إيداعه هذه الحقيبة عندي بدأ أبي يحدثني عن هذه المرحلة من حياته . تحدث في طفولتنا أيضا عن تلك السنوات لكن دون أن يذكر لنا شيئا عن هشاشته ولا رغبته في أن يصبح شاعرا ، ولا همومه الوجودية في غرف الفنادق . روى لنا كيف أنه غالبا ما كان يرى سارتر على أرصفة باريس . تحدث عن الكتب التي قرأها والأفلام التي شاهدها بحماس ساذج كمن يحمل أنباء خطيرة . حقا لا أستطيع أن أخفي أن قدري ككاتب مدين الى حقيقة أن أبي غالبا ما كان يحدثنا عن الأدباء العالميين العظام أكثر مما كان يحدثنا عن باشواتنا وكتابنا الدينيين .

ربما كان علي بدلا من أن أولي أهمية كبيرة جدا لقيمة كتاباته الأدبية أن آخذ بنظر الاعتبار كل ما أدين به الى مكتبته مذكرا نفسي بأن أبي عندما كان يعيش معنا لم يكن يأمل، كما لا آمل أنا الآن، في أكثر من أن يجد نفسه وحيدا في غرفة ليندفع داخلا وسط حشد أحلامه .

في هذه الأثناء وأنا أتأمل هذه الحقيبة المغلقة بقلق شعرت تماما بأني غير قادر حتى على هذا الاعتبار . كان من عادات أبي أن يتمدد أحيانا على الأريكة عند مدخل المكتبة ، يضع جانبا المجلة أو الكتاب الذي كان يقرأه ويتتبع طويلا درب أفكاره . كان يبدو على وجهه عندها تعبير جديد ، مختلف عن الذي لوجهه وهو وسط المزاح ، وسط النقاشات أو وسط المناكدة ، نظرة موجهة نحو الداخل . استنتجت منذ طفولتي وشبابي الأول أن أبي رجل قلق ، وقلقت لذلك أنا أيضا . أنا أعرف الآن ، بعد كثير من السنوات ، أن هذا القلق هو أحد الأسباب التي تصنع من الإنسان كاتبا . إن شعوري ، فيما يخص مكاني من العالم ، هو أني مهما يكن فأنا على انفراد ، وبعيد تماما عن كل مركز ، سواء كان مركزا في الحياة أو في الأدب . في مركز العالم توجد حياة أكثر ثراء وأكثر قوة من الحياة التي نعيشها وأنا لست استثناء من أبناء وطني كلهم . أرى اليوم أني أتشاطر هذا الشعور مع الجميع تقريبا . بالمقابل يوجد أدب عالمي مركزه بعيد جدا عني ولكن ما أفكر فيه ليس هو الأدب العالمي بل الأدب الغربي ، ونحن الأتراك مستثنون أيضا منه بالتأكيد كما أكدته مكتبة أبي . من جانب كانت هناك كتب وأدب إسطنبول، عالمنا المضغوط الذي أحزنتني تفاصيله ولا زالت ، ومن جانب آخر كتب العالم الغربي ، المختلفة كليا ، والتي تمنحنا من الألم أكثر مما تمنحنا من الأمل . إن الكتابة والقراءة هي على نحو ما طريقة للخروج من عالم ما والعثور على العزاء بواسطة الاختلاف ، الغرابة ، وإبداعات الآخر العبقرية . أشعر أن أبي كان أحيانا يقرأ لتفادي عالمه والهرب نحو الغرب كما فعلت أنا فيما بعد . بدا لي أيضا أنه في تلك الفترة نفعتنا الكتب في إنفكاكنا من شعورنا بالدونية الثقافية . إن فعل القراءة ، وكذلك فعل الكتابة ، كان يقربنا من الغرب بجعلنا نتقاسم معه شيئا ما . لكي يعبئ أبي هذه الحقيبة بدفاتره ذهب ليعتكف في غرفة بفندق في باريس ثم جلب الى تركيا ما كتبه .

هذا هو ما جعلني أخيرا أفتح حقيبة أبي .. ربما كان في حياته سر ، تعاسة غاية في الأهمية، أعانته على الكتابة دون أن يكتبها . حالما فتحت الحقيبة تبادرت الى ذاكرتي رائحة كيس رحلاته ، وأدركت أني أعرف بعضا من دفاتره التي أرانيها أبي منذ سنوات مبكرة دون أن أوليها أهمية . معظم التي قلبت صفحاتها واحدا واحدا تعود الى السنوات التي كان فيها أبي لا يزال شابا ، وكان غالبا ما يغادرنا عائدا الى باريس ، لكن ما أملته وما يأمل فيه كل كاتب

أحببته وقرأت كتبه لو كان في موقفي هو أن أفهم ما استطاع أبي أن يفكر فيه ويكتبه وهو في مثل سني . سرعان ما أدركت أني لن أقوم بهذه التجربة . لقد ضايقني صوت الكاتب الذي كنت ألمحه هنا أو هناك في هذه الدفاتر . قلت لنفسي أن هذا الصوت ليس صوت أبي ، لم يكن أصيلا ، أو أنه لا يعود للشخص الذي عرفته أباً لي . هنا كانت توجد خشية أكثر وطأة من القلق البسيط الذي يسببه معرفة أن أبي توقف ، وهو يكتب ، عن أن يكون أبي ، خوفي الخاص من أن لا ينجح في أن يكون أصيلا يغلب عليه خوفي من أن لا تعجبني كتاباته وحتى أن أكتشف أنه قد تأثر تأثرا مفرطا بكتاب آخرين ، وتحول هذا الخوف الى أزمة أصالة أجبرتني أن أسائل نفسي ، كما في سنوات شبابي ، عن وجودي كله ، عن حياتي ، عن رغبتي في الكتابة ، وعما كتبته .

أنا من جانب آخر أعترف أنه لم يكن أبا اعتياديا يوزع الأوامر والنواهي ، يحطم ويعاقب ، وكان يحترمني دائما ويتركني على حريتي . اعتقدت أحيانا أن مخيلتي يمكن أن تشتغل بحرية كمخيلة طفل لأني لم أعرف خوف الضياع الذي عرفه العديد من أصدقاء طفولتي وشبابي ، وأحيانا كنت أفكر مخلصا أني استطعت أن أكون كاتبا لأن أبي أراد هو أن يكون كاتبا في شبابه . كان علي قراءته بتسامح وأن أفهم ما كتبه في غرف الفنادق تلك .

بهذه الأفكار المتفائلة فتحت الحقيبة التي ظلت عدة أيام هناك حيث تركها أبي ، وقرأت مستنفرا كل إرادتي دفاتر معينة ، صفحات معينة .. ما الذي كتبه إذن ؟ أتذكر مما قرأته في بضعة قصائد مناظر لفنادق باريسية ، أذكر أني قرأت مفارقات ، وخواطر . أشعر الآن أني كشخص تعرض لحادث سير ويحاول بصعوبة تذكر ما حدث له ، وأني أنفر من التذكر . في طفولتي عندما كان أبي وأمي على وشك الدخول في جدال ، يعني أثناء حالة من حالات الصمت المميت ، يبادر أبي الى تشغيل المذياع لتغيير الجو ، تنسينا الموسيقى تغيير الموضوع بشكل أسرع وقول بضع كلمات بدلا من الموسيقى .

تعرفون أن السؤال الذي يطرح أكثر من غيره على الكتّاب هو التالي ((لماذا تكتب ؟)) أنا أكتب لأني أرغب في الكتابة ، أكتب لأني لا أستطيع أن أقوم مثل غيري بعمل اعتيادي ، أكتب لأن كتبا مثل كتبي تكتب وأقرأها ، أكتب لأني ساخط عليكم جميعا ، على العالم كله . أكتب لأنه يروق لي أن أبقى محبوسا في غرفة طوال اليوم . أكتب لأني لا أتحمل الواقع فأقوم

بتعديله . أكتب لأن العالم كله يعرف أي نوع من الحياة عشنا .. نحن نعيش ، أنا ، الآخرون ، كلنا في اسطنبول ، في تركيا . أكتب لأني أحب رائحة الورق ورائحة الحبر ، أكتب لأني أؤمن فوق كل شيء بالأدب ، بفن الرواية . أكتب لأن الكتابة عادة عندي وشغف . أكتب لأني خائف أن أكون منسيا . أكتب لأني أستمتع بالشهرة وبالإهتمام الذي تسبغه علي الكتابة. أكتب لأكون وحيدا. أكتب بأمل أن أفهم لماذا أنا ساخط عليكم الى هذه الدرجة ، ساخط على كل العالم . أكتب لأنه يروق لي أن يقرأني الناس . أكتب وأنا أقول لنفسي يجب أن أنهي هذه الرواية ، هذه الصفحة التي بدأتها . أكتب وأنا أقول لنفسي أني أكتب لأن هذا هو ما ينتظره الناس مني . أكتب لأني أؤمن مثل الطفل بخلود المكتبات وبالمكان الذي ستحتله كتبي فيها . أكتب لأن الحياة ، العالم ، كله جميل ومدهش بشكل لا يصدق . أكتب لأنه ممتع أن نترجم بالكلمات هذا الجمال وغنى الحياة هذا . أكتب لا لكي أروي قصصا بل لأنشئ قصصا ، أكتب لأهرب من الشعور أني لا أستطيع بلوغ المكان الذي أتمنى بلوغه ، كما في الأحلام . أكتب لأني لا أستطيع أن أكون سعيدا مهما فعلت . أكتب لأكون سعيدا .

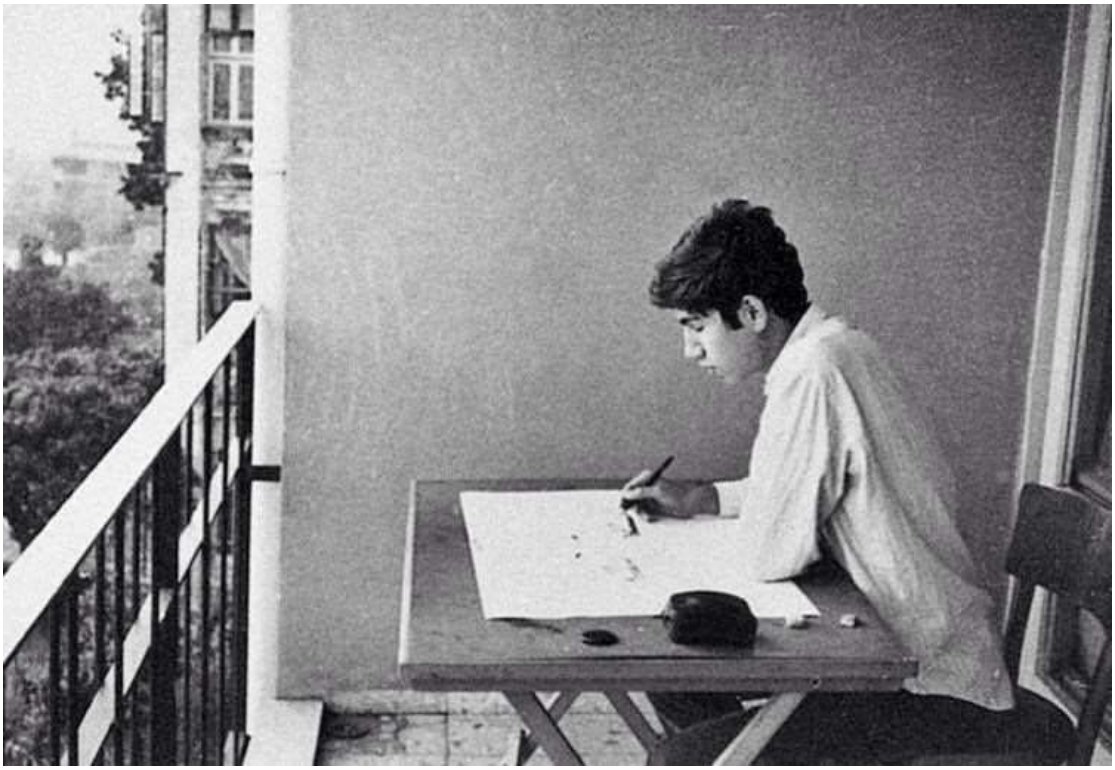

أورهان باموق في أول شبابه يمارس الرسم

*

بعد أسبوع من إيداع الحقيبة داخل مكتبي زارني أبي مجددا ومعه كالعادة علبة شكولاتة (ناسيا أني بلغت من العمر خمسة وأربعين عاما) وكالعادة تحدثنا عن الحياة ، عن السياسة ، ثرثرنا ثرثرة عائلية وضحكنا . في لحظة معينة وقع نظره على المكان الذي ترك فيه الحقيبة وعرف أني قد حركتها من مكانها . تلاقت نظراتنا . ران صمت مرتبك . لم أقل له أني فتحت الحقيبة وحاولت أن أقرأ ما فيها . تهربت من نظرته . لكنه فهم ، وفهمت أنه فهم . هذا النوع من التفاهم لا يدوم أكثر مما يستحق . لأن أبي كان رجلا واثقا من نفسه ، مرتاحا وسعيدا مع نفسه ضحك كالعادة وكرر مرة أخرى وهو يغادر ، كأب ، كلمات التشجيع اللطيفة التي يقولها لي دائما ، وكالعادة نظرت اليه وهو يخرج وأنا أغبطه على سعادته ، وعلى هدوئه . لكني أتذكر أني شعرت ذلك اليوم بسعادة محيرة ارتعش لها جسمي.

قبل خمسة وعشرين عاما عندما كنت في الثانية والعشرين قررت أن أترك كل شيء وأن أصبح روائيا. حبست نفسي في غرفة ، وبعد أربع سنوات أنهيت روايتي الأولى (جودت بك وأولاده) ، وحملت بيدين مرتعشتين نسخة مكتوبة بالآلة الطابعة من الكتاب الذي لم يكن قد طبع بعد الى أبي لكي يقرأه ويقول لي رأيه فيه فالحصول على رضاه كان مهما بالنسبة الي ليس فقط لأني أستطيع الإعتماد على ذائقته وذكائه بل أيضا لأنه بخلاف أمي لم يكن يعارض أن أكون كاتبا . حين عاد بعد أسبوعين هرعت لأفتح له الباب . لم يقل أبي شيئا ولكنه أخذني بين ذراعيه وعانقني عناقا فهمت منه أنه أحب كتابي جدا.

بقينا صامتين لفترة من الزمن ، متضايقين لأننا لا نعرف كيف نبدأ الحديث ، كما لو أنه وصل في لحظات بالغة الحساسية. عندما استعدنا هدوءنا وبدأنا نتحدث عبّر أبي ، ممتلئا بالأثارة وبكلمات تعظيمية عن ثقته بي، وبكتابي . قال لي بأني يوما ما سأحصل على جائزة ، وهي الجائزة التي أقبلها اليوم بسعادة بالغة . لقد قال لي ذلك بدرجة أقل عن قناعة أو بقصد أن يضع لي هدفا كما يقول أي أب تركي لإبنه مشجعا ((ستكون باشا !)) ، وقد كرر هذه الكلمات طوال سنوات كلما رآني ليمنحني الشجاعة .

توفي أبي في كانون الأول عام 2002 .

=========

Traduit du turc par Gilles Authier

La Fondation Nobel 2006 ©

Orhan Pamuk : la valise de mon père

LE MONDE 14.12.06

الماضي غير التام لمارك بلوخ

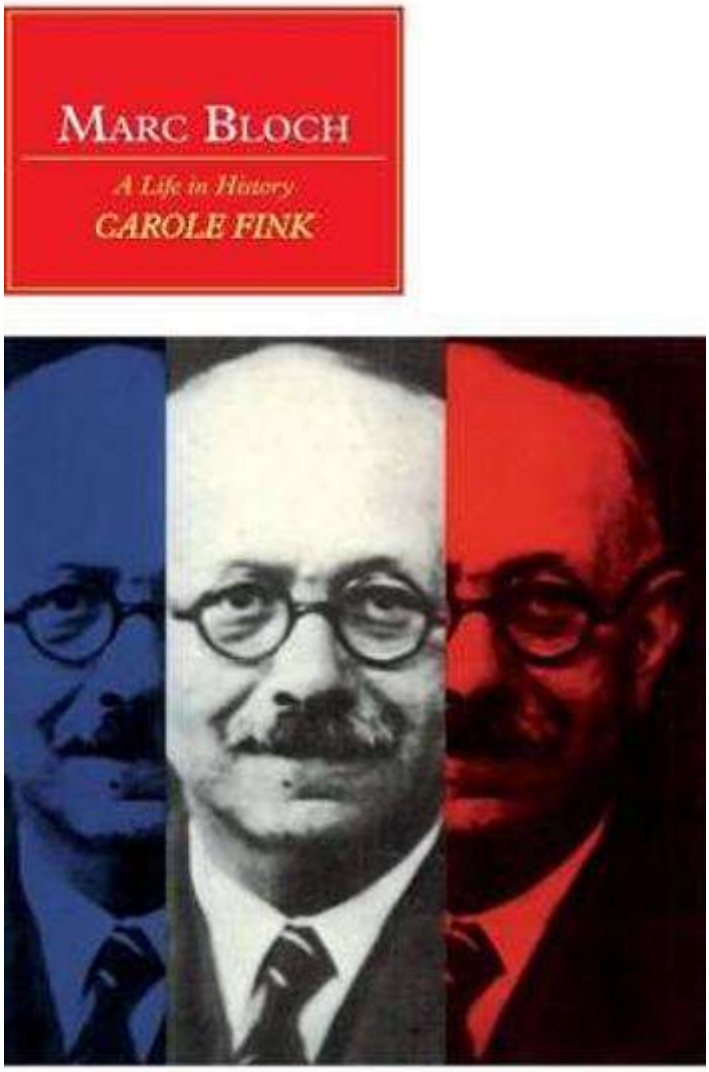

في الثامنة مساء من يوم 16 حزيران 1944 بعد مضي عشرة أيام على غزو الحلفاء لفرنسا جرجر الغستابو 28 من مقاتلي المقاومة الفرنسية من الزنازين التي حبسوا فيها حيث عذبوا وأستجوبوا في سجن مونتلوك بمنطقة ليون وقد قيدوا أزواجا. رمي الرجال في شاحنة مكشوفة وسيقوا الى حقل فارغ خارج قرية تعرف بإسم سان–ديديه–دي–فورمان. طوال الطريق كان ضابط ألماني يصيح في وجوههم قائلا بأن الحرب لازال من الممكن كسبها وأن لندن على وشك أن تدمرها القنابل الطيارة 6. لازال من الممكن للندن أن تنجو طبعا ومن الممكن أن لا

تكسب ألمانيا النازية الحرب، ولكن هذا الإحتمال لم يكن يشكل بالنسبة لرجال المقاومة هؤلاء إلا عزاء قليلا وهم يأخذون أربعة فأربعة الى داخل الحقل لتنفيذ الإعدام فيهم. سمحت لنا رواية إثنين منهم نجيا من الموت بعد أن أطلق عليهما الرصاص من مسافة قريبة من الخلف بأن نعرف شيئا عن لحظاتهم الأخيرة. لم يطلب أي منهم الرحمة، وقد لفظ بعض الرجال كلماتهم بصوت عال فيما كانوا يساقون الى داخل الحقل. صاح أحدهم " وداعا يا زوجتي!" ولكن المشهد الأكثر تميزا كان هو المشهد القصير الذي دار بين أكبر السجناء سنا وأصغرهم سنا.

كان الأصغر سنا صبيا حقا في السادسة عشرة من عمره ومرعوبا مما يوشك أن يحدث. الأكبر سنا كان صغير الجسم أصلع الرأس ولكنه ذو هيئة محترمة في الثامنة والخمسين من عمره ويضع عوينات مدورة وقد بدا عليه الهزال الذي يميز سجينا إستطاع تحمل التعذيب مرارا. فيما سحب أفراد فرقة الإعدام أقسام أسلحتهم تأوه الصبي قائلا "هذا سيكون مؤلما" فطمأنه الرجل "كلا يا بني. إنه لا يؤلم"، ومد يديه ليضم بهما يدي الصبي ويبقى ممسكا بهما وهو يصيح "تحيا فرنسا!" بينما كانت الرشاشات تطلق رشقتها الأولى.

هكذا مات مارك بلوخ الذي يعتبره الكثيرون أهم وأكثر مؤرخي القرن العشرين تأثيرا، ودون شك، أحد أعظم الرجال بين المؤرخين. لقد قيض لأعضاء قليلين جدا من المشتغلين في الحقل الأكاديمي أن يخلقوا ثورة في الطريقة التي يدرس بها إختصاصهم. لكن مارك بلوخ فعل هذا وهو ما ساعد في خلق مدرسة الحوليات ضخمة التأثير والتي نزلت الى حلبة النقاش لصالح دراسة "التأريخ من القاع" ، دراسته في الحياة اليومية، دراسته في سياق الجغرافيا والوسط الإجتماعي وعلى "مدى طويل" ، على مدى ألف سنة وأكثر. قليل من الرجال يجمعون بين نجاح مهني بهذا التميز والنجاح في مجالات أخرى.

علاوة على أن بلوخ قاتل في حربين عالميتين ونال أربع إشادات بالشجاعة وكسب وسام الشرف وهو المعادل لميدالية الكونغرس للشرف في الحرب الأولى وضحى بحياته لتحرير بلده من الإستبدادية الديكتاتورية خلال الحرب الثانية. من الصعب تصور رجل أحق منه بالثناء الذي ناله بعد الحرب، وواضح كما قالت سيرته، أنه عزم على "إلغاء كل المدارس الخاصة، وإنهاء عبودية الإمتحانات، وطغيان اللاتينية والإغريقية، وإدخال الدراسات الكلية، وتشجيع التجديد في مناهج التعليم، وإعادة تنظيم البحث". حقا حتى عندما كان منخرطا بفعالية

للتخطيط ليوم الصفر فإنه كما كتبت فرانسين ميشار "حلم بعالَم أكاديمي بلا حدود حيث يمكن أن تكسر الحدود الجغرافية والزمنية والصارمة ويقترب التاريخ الإنساني من منظور كوني".

بلوخ المولود في العام 1886 هو إبن غوستاف بلوخ وهو مؤرخ مختص بتأريخ روما قام بالتدريس في جامعة ليون وكان يؤمن إيمانا راسخا بفكرة أنه يجب أن يوضع التأريخ على شكل أسئلة مستقصية أكثر من كونه مجرد سرد قصصي. يدين بلوخ الشاب بالكثير من تهذيبه المبكر لوالده الذي كان كوالدته إبن مهاجر يهودي من أوربا الشرقية، ولكن فترة واحدة من طفولته هي التي كان لها الأثر الكبير على تفكيره في طفولته المبكرة فقد ناضلت عائلة بلوخ حوالي 12 عاما من أجل ألفريد دريفوس ضابط الجيش اليهودي الذي أتهم ظلما بالتجسس لصالح ألمانيا والذي كان إعتقاله وإدانته بالخيانة العام 1894 سببا في إنقسام فرنسا الى معسكرين. أقنعت قضية دريفوس الشاب بلوخ بأنه حتى البحوث الموضوعية من أجل معلومات "حقيقية" يمكن أن تفضي الى تحريفات خطرة. رفضه لفكرة أن الجمع "العلمي" للحقائق هو الطريقة الأفضل لتناول التأريخ كان الخطوة الأولى لصياغة التخلي الراديكالي والمؤثر عن التأريخ المقاد بالحدث، ذلك التخلي الذي ميز مدرسة الحوليات.

الذهن الحاد، الذي ترافق لحسن الحظ مع نشأة مميزة، منح بلوخ الفرصة لمواصلة مهنة أكاديمية ممتازة أخذته خلال أرفع المدارس والكليات في فرنسا وتتوجت بكتب مؤسسة. مع أن بلوخ معروف جيدا في العالم الناطق بالإنكليزية بكتابه (حرفة المؤرخ) وهو كتاب يضم نصيحة لا زالت صالحة لمن يريد أن يصبح ممارسا لقراءة التأريخ فإن أعمال بلوخ الأكاديمية الرئيسة تظل أيضا مقروءة على نطاق واسع. عمل واحد فقط يتعامل مع موضوع حديث هو (الهزيمة الغريبة) ويشكل دراسة داخلية ثاقبة لأسباب إنهيار فرنسا الكارثي في العام 1940 وقد كتب في الأشهر الأولى للإنتصار النازي، ولكن بيد بلوخ حتى المواضيع الأكثر خصوصية تصبح مطواعة لنظرات مفيدة، فالشخصيات التي جمعها بلوخ لكتابه الأول (الملوك التومارجيين) والذي ترجم الى الإنكليزية بعنوان (اللمسة الملكية) ويتعامل مع إعتقاد قديم في أن الملوك لديهم القوة لشفاء الأورام المؤلمة الناتجة عن مرض السكروفيولا، ويبين أن 2400 مريض تجمعوا لكي "يلمسوا" من قبل الملك لويس السادس عشر في عام 1774 بينما لم يتجمع بعد قرن من الزمن للمسة الملكية من قبل ملوك بوربون أكثر من 120، وبهذا فإن شارل العاشر

كما يشير إريك هوبزبوم هو الدليل الساطع على الإنهيار الكامل للإعتقاد الفرنسي بالملوك المعينين من قبل السماء.

إن أفكار مدرسة الحوليات التي أسسها بلوخ وقادها مع صديقه الحداثوي المبكر لوسيان فيبفر وإزدهرت في تدوين التاريخ والكتابة الى درجة يصعب علينا تصور كم كانت ثورية في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي. حتى النصير المتطرف لتأريخ "الرجل العظيم" والذي ينظر الى المرحلة أو المشكلة من الأعلى الى الأسفل يقر اليوم بأنه لا بأس في الوقت نفسه بدراسة ما يفكر ويفعل الجمهور ، ولا يستطيع أن يدعي بأنه لا يمكن تعلم شيء من دراسة حياة القرية خلال قرون. مع ذلك فالأفكار التي جهد بلوخ في تعزيزها إقتضت زمنا طويلا لترسخ نفسها. بحلول العام 1940 عندما عادت الحرب الى فرنسا على شكل الحرب الخاطفة الألمانية بضراوة لا مثيل لها كان بلوخ لا يزال يصارع لنشر فكرته على نطاق الشعب وهو يعمل كأستاذ للتأريخ الإقتصادي في السوربون أرقى جامعات فرنسا.

نظر بلوخ الى إنهيار فرنسا برعب واضح وكان من بين اوائل المتطوعين لتقديم خدماته للمقاومة الفرنسية ما أن ظهرت الى الوجود. كان بلوخ معروفا جيدا وبالنسبة الى بعض رجالات المقاومة أكبر سنا من أن يكون مفيدا. قام في الأشهر الأولى لتطوعه بالأعمال الصغيرة مثل إيصال الرسائل والصحف دون أن تبدر منه شكوى. عندما عاد الى مسقط رأسه ليون وإستعار إسم "المسيو رولان" عاش وحيدا حياة خطرة في سلسلة من الشقق المفروشة وكابد ألم فراقه عن عائلته.

عمل بلوخ، بوصفه مقاوما ليونيا، جنبا الى جنب مع الشهير جان مولان الذي كانت الوشاية به وقتله بداية النهاية للمقاومة المحلية ورغم أن مولان رفض الكلام تحت التعذيب الشديد فقد وضع الغستابو المقربين منه تحت رقابة مشددة ثم بدأت سلسلة الإعتقالات التي انتهت بإعتقال بلوخ.

لقد أفلت المؤرخ منهم لما تبقى من عام 1943 ومعظم 1944 وقد ترفع الى قائد مقاومة محلية بمنطقة الرون وعرف بمؤهلاته القيادية الملهمة الهادئة، وقد افتتح مكتبا في ضاحية

من ضواحي ليون يشفر فيه الرسائل ويفك شيفرات رسائل الحلفاء ويتأكد من تسليمها لوكلائه في شوارع المدينة.

يلاحظ كاتب سيرته فينك بأنه "كانت توجد طبعا فترات من العزلة غير المعتادة فقد قضى بلوخ عيد ميلاده السابع والخمسين وحيدا. تابع عبر إتصالاته بمعارفه مصير إبنيه المنفيين وحجزهما الطويل في سجن إسباني ثم فرارهما الى شمال أفريقيا. كان بإستمرار قلقا على سلامة أخته الكبرى أليس التي رعته في بيت العائلة حتى بلغ سن الواحدة والعشرين، وخلال فترات فراقه الطويلة عن ذويه وجد حياته "ثقيلة" ولام نفسه معتبرا أنه "تخلى عنهم".

كانت طريقة بلوخ للتلاؤم مع فقدانه لعائلته في تبني دورا أبويا إزاء مجموعة المقاومة المسؤول عنها. مع أنه كان محميا بإسم حركي هو "ناربون" فإن شهرته كأستاذ كانت تجعله مكشوفا بشكل خطر لعدد من أعضاء المجموعة الذي رأوا فيه رجلا عادلا، باسم الوجه، حلو المعشر، وحسب وصف فينك كان "واحدا من شيوخ الحركة الأكثر عملية وإدراكا". ربما كان المؤرخ، آخذين بنظر الإعتبار ظروفه، يمضي وقته متأملا في المستقبل وهو يحلم بأن يأتي اليوم الذي يُعهد فيه إليه بمنصب وزير التعليم الوطني.

كان بلوخ وطنيا متحمسا وقد كتب في "الهزيمة الغريبة" : "ولدت في فرنسا وشربت من مياه ثقافتها. جعلت ماضيها ماضيي. أنا أتنفس بحرية في مناخها فقط، وفعلت ما في وسعي، مع آخرين، للدفاع عن مصالحها". والحالة هذه فقد تجاهل توسلات زملائه بأن يتخذ الحيطة والحذر الشديدين لأجل سلامته عندما شعر بأنهم سيتدخلون في نشاطه كرجل مقاومة. ويضيف فنك: "بالرغم من العديد من حالات الحرمان كانت له هيئة مرحة ويبدو أنه كان يستمتع بحريته الشخصية وبالصعوبة الجسدية والمادية للناشط في الخفاء". علاوة على ذلك توقع بلوخ الموت في أية لحظة عارفا بأنه، بعد سنة كاملة كقائد للمقاومة، أصبح معروفا جيدا للعديد من الناس الى درجة يصعب معها النجاة، فأي واحد عرفه من بين مئات المقاومين يمكن أن ينهار ويعترف تحت التعذيب.

بدأت موجة جديدة من الإعتقالات في نيسان 1944 أطلقها التحري والتحقيق مع "دراك" وهو قائد مقاومة كان جزءا من حركة المقاومة وكان نائبه بلوخ–ميشيل إبن أخت بلوخ. ألقي

القبض على المؤرخ في صباح اليوم التالي بسبب وشاية خباز أشار للغستابو عليه فيما كان يعبر جسر البوكل في التاسعة صباحا. ألقي القبض عموما على 63 عضوا في المقاومة خلال هذه المداهمات ما دفع وزير الإعلام في حكومة فيشي فيليب هنريو الى التبجح قائلا: "لقد تحطمت ليون عاصمة المقاومة". أمر هنريو الصحافة المتعاونة بالتركيز على بلوخ لتصفه "برئيس أركان الإرهاب" وتصمه "يهوديا إستعار إسما من مدينة فرنسية جنوبية" وإعتاش على أموال وفرتها له "لندن وموسكو".

ما كان يهم بلوخ مباشرة هو المصير الذي ينتظره في سجن موليه المظلم حيث كان يحقق ضابط من الغستابو سيء الصيت يدعى كلاوس باربي. يتذكر ريمون أوبراك وهو أحد ضحاياه قائلا: "عندما أعود بذاكرتي الى تلك الفترة أفكر أحيانا أنه لم يكن مهتما كثيرا بالحصول على معلومات. كان ساديا أساسا يستمتع بالتسبب بالألم وإثبات سلطته. كانت لديه قدرة عجيبة على العنف.. هراوات، وكلابات، وأسواط تستقر على منضدته ويستخدمها بالجملة. على العكس مما يقوله البعض فإنه لم يكن رجل شرطة جيدا لأنه لم يحصل أبدا على معلومات مني، ولا حتى على هويتي أو كوني يهوديا".

امرأة مقاومة نجت تدعى ليز ليزيفر تتذكر أن باربي عذبها لتسعة أيام بضربها وتعليقها بقيود ذات مسامير وأمرها بأن تتعرى وتدخل في حوض مليء بماء مثلج ومن ثم قام بتغطيسها فيه، وأخيرا ضربها بعصا مطاطية وبكرة ذات مسامير متصلة بسلسلة كسرت فقرة من ظهرها وتركتها تعاني الألم طوال حياتها. خضع بلوخ لتحقيقات مماثلة مرتين على الأقل وقضى أربعة أسابيع في مشفى بعد لقاء ثان مع باربي، وكان سبب إعتلاله التعرض طويلا للحمام الثلجي والهراوة المطاطية التي وصفتها ليزيفر.

يختتم فينك حديثه قائلا: بأنه "خلال هذا العذاب الطويل" ظل بلوخ هادئا ومتحملا. لم يخبر الألمان بشيء سوى إسمه الحقيقي ربما على أمل تدخل خارجي وربما كان ذلك كبرياءا أو رغبة في معاملة أفضل. بعد إخراجه من المشفى حقق معه مرتين أخريين في 22 آيار و 25 آيار ورفض مجددا الإفصاح عن معلومات.

حتى بعد هذه الوحشية إحتفظ بلوخ بقوة كافية وفضول ثقافي ليشرع بتدريس التاريخ الفرنسي للمقاومين الشباب المسجونين معه والذين يتذكر أحدهم أنه تلقى درسا عن أنماط الحقل في المرحلة الإقطاعية. لكن مصير المؤرخ مثل مصير الذين من حوله ختم بغزو دول الحلفاء والتراجع الألماني. قرر الغستابو ترك أقل قدر ممكن من الدلائل على نشاطاتها وتم إطلاق الرصاص على أغلب نزلاء سجن موليه.

في الصباح بعد إعدام بلوخ عثر مدير مدرسة القرية على جثته بين جثث رفاقه قال فينك بأن "مشهد المجزرة" كان فوضى وحشية، الجثث باقية ممدة على الظهر، والبطن، والجانب، وبعضهم رقد ملتويا. كان بينهم رجل أعمى يمسك عصاه وآخر يده اليمنى إصطناعية، وكانت توجد جثة يرتدي صاحبها وسام الشرف".

ربما كان حامل وسام الشرف هو بلوخ لأن أيا من الجثث لم يكن ممكنا التعرف عليها أصوليا. على كل حال تم جمع الجثث ودفنت في قبر جماعي في مقبرة القرية.

اليوم موقع الإعدام فارغ إلا من نصب متوحد في نهاية الحقل قريبا من المكان الذي مات فيه بلوخ. لا زالت ذكراه حية بشكل أقوى فقد أحتفي به كمقاتل ضد النازية وكواحد من أعظم المؤرخين الذين أنجبتهم فرنسا وأكثرهم أصالة.

==========

عن مجلة : Smithsonian

المصادر:

;Marc Bloch. Memoirs of War, 1914–15. Cambridge. CUP, 1988

;Marc Bloch. The Historian's Craft. Manchester: MUP, 1992

André Burguière. The Annales School: An Intellectual History. Ithaca [NY]: Cornell University Press, 2009

Carole Fink. Marc Bloch: A Life in History. Cambridge: CUP, 1989 ;

Astma Haratmut and André Burguière. Marc Bloch Aujord'hui. Paris: Editions ;
de l'EHESSS, 1990

Eric Hobsbawm. On History. London: Abacus, 1999 ;

Bruce Lyon. "Marc Bloch: historian." In French Historical Studies, 1987 ;

Francine Michaud. "Marc Bloch 1886-1944". In Philip Daileader & Philip ;
.(Whalen (eds

French Historians 1900-2000: New Historical Writing in Twentieth Century France. Oxford: Blackwell, 2010; John Warren. History and the Historians.
London: Hodder, 1999

Renée Poznanski. Jews in France During World War II. Hanover [NH]: ;
.University Press of New England, 1992

جان دارك في المحكمة

جان-نوئيل ديمون*

إن جان دارك شخصية قد تكون معروفة لأغلب المثقفين، ولكن ليس السبب في إقدامنا على ترجمة هذا المقال هو التعريف بها أو إطلاع القارئ على وقائع تأريخية قد لا يعرفها. إن محاكمة جان دارك، كما يبين الكاتب، تطرح أسئلة جوهرية بخصوص عدالة الغايات ونزاهة الوسائل، خصوصا، إذا كان الأمر يتعلق بإستخدام العنف لتحقيق غايات في ظاهرها روحية أو دينية وفي حقيقتها سياسية. يكلمنا عن الذي يقول، وهو لا يعتقد حقا بدليل الوسائل التي

يستخدمها، أن الله ربه هو وحده والآخر إما كافر أو مرتد ولا بد من ذبحه، فهدفه سياسي. يحلل وقائع المحاكمة ويربطها بالضروري ذكره من وقائع السِيَر والمعارك وأحوال العصر. وأسئلة أخرى علينا التأمل فيها.

*

إن جان دارك واحدة من شخصيات القرن الخامس عشر الشهيرة، إن لم تكن الشخصية الأكثر شهرة، وحسب رأي جاك لو غوف Jacque le Goff فإنها الشخصية التي نعرفها معرفة أفضل من غيرها، نمتلك عنها الوثائق الأكثر صحة والأكثر دقة، نمتلك نص المحاكمة التي أدانتها، ونص المحاكمة التي أعادت إليها الإعتبار، نمتلك سجل الوقائع التي دونها الإنجليز، ومراسلاتهم، ومراسلات آل بورغينيون، ومراسلات مختلف أعضاء المحكمة، وحتى مراسلات جان دارك، نمتلك عن هذا التأريخ ما يكفي من الوثائق لتجنب الوقوع في الإستيهامات، وفي الوقت نفسه، فإن جان دارك هي الشخصية الأكثر غموضا بحكم هذا النداء الباطني، المحير، الذي يقودنا الى لقاء شخصية تأريخية بالإضافة الى كونها شخصية ملغزة. لماذا هذا العنوان "محاكمات جان دارك"؟ في الواقع أن هذه الفتاة الفقيرة قد بدأت عند بلوغها سن الرابعة عشرة بمحاكمة أمام أسقفية (تول) كان خصمها فيها شخصا مغرما بها اشتكى من أنها لم تحترم وعدها له بالزواج ما أضر بمصداقية أهلها، ثم عانت من محاكمة في (بواتيير) عندما إستقدمها شارل الثاني عشر الذي كان حينئذ لا يزال يدعى فقط "ملك بورجيه الصغير"، بإخضاعها الى محكمة كنسية حققت معها للتأكد من سلامة عقيدتها وإستقامة أخلاقها، ثم عانت من المحاكمة الشهيرة التي أدانتها في (روين) العام 1431، ثم المحاكمة التي أعادت إليها الإعتبار العام (1456) (هامش المترجم هـ م 1) بمسعى من والدتها التي شجعها شارل الثاني عشر الذي لم يرغب في أن يرتبط عهده كملك بحكم بالموت. هذه المحاكمة تسمح لنا بمعرفة أفضل لشخصية جان دارك. أخيرا يمكننا القول أنها منذئذ لم تكف عن أن تكون في حالة محاكمة، في الأقل حتى العام 1920، حين إنعقدت المحاكمة التي رسمتها قديسة، غير أن محاكمة شخصيتها لم تتوقف.

نحن أمام حديث لا لبس فيه يشهد لشخصية ليس من سجاياها المراوغة أو القلق، تدلي برأيها بحرية تامة مطلقة. ينشئ لنا نص محاكمة (روين) بطريقة موثوقة الكلام الطلق لفتاة

شابة عمرها 19 عاما، جريئة، حرة، ذكية، بسيطة. يضعها أمامنا وهي تجاهر بمعارضتها لكلام السياسيين البارعين، الأذكياء هم أيضا والحريصين على السلطة. إن محاكمة (روين) هذه، المعروفة منذ طبعها في القرن التاسع عشر، تجعلنا نستمع مباشرة الى المواجهة بين ضمير ومحكمة.

إن ذاكرة الغرب قامت على حكمين بالموت، الأول هو الحكم على المسيح والثاني هو الحكم على سقراط. قامت على محاكمتين لم يقم خلالهما المتهمان بالدفاع عن نفسيهما مطلقا. كان يبدو عليهما أنهما لا يرغبان في الدخول في المنازعة أو الدفاع بضراوة عن قضيتيهما، لا بل أظهرا نوعا من الإستخفاف بالقضاة. وكما ولد الغرب من ذكرى سقراط والمسيح يمكننا بكل تأكيد القول بأن الضمير الفرنسي، في جزء كبير منه، ولد أيضا من الحكم بالموت على جان دارك البطلة والقديسة. هكذا فإن المؤسس لذاكرة الغرب ليس هو البطل المنظم، ولا الزعيم الذي يضع القوانين، والذي يبني مجتمعا وفق خطة. المؤسس هنا يختفي تحت الأسس. إنساب سقراط والمسيح وجان دارك في الأسس. إنهم لم يؤسسوا بمعنى أنهم سنوا دستورا، ونظموا مجتمعا، وأعطوا نصوصا مرجعية، وعقيدة يتوجب على المرء أن يتطابق معها، بل أُبتلعوا تماما في فعلهم نفسه، في سر فعلهم، لأنه فعل بالضبط وليس تزييفا. فعل في حالته الخالصة التي لا يبقى فيها سوى الترسيخ لضمير حر، دون صرح آخر سوى صرح فعله نفسه. إنهم، على نحو ما، أناس يكتبون على الماء ولا يتركون سوى حضورهم غير المرئي و Inobjectivable معا. جميل أن تكون ذاكرتنا مقامة على هؤلاء المحكومين بالموت الذي يكون حضورهم في غيابهم نفسه، في الإيثار الكامل الذي إستطاعوا إجتراحه، دون أن يكون هذا الإيثار محتفى به بأي صرح زاه، بأي قبر فخم ظاهر. ماتوا لِما وُجِدوا له، ليس لبرنامج وضعوه، إنهم موتى دون برامج، يموتون لما وُجِدوا من أجله، في مواجهة سلطة لم يعبروا حتى عن رفضهم لها.

المحاكمة إذن هي الحالة المثالية لتأسيس غرب يحمل في أعماقه ذكرى نوع من التقصير الأصلي. إننا دون شك في حضارة تحمل ذكرى تقصير أول، ذكرى حذف أحاديث أصيلة، ولسنا أبدا في بنية سياسية كالتي يمكن للفلاسفة أن يحلموا بها. هكذا نحن مقامون على ذاكرة حرية لا تبلى لضمير في مواجهة محكمة، وعلى ذاكرة اللاتسويغية المطلقة للمحكمة.

فضلا عن ذلك شاءت الأقدار أن تكون محاكمتهم هي محاكمة الأشقاء. كان يمكن أن تكون محكمة أخرى لو أنهم أُتهموا ظلما من قبل طرف أجنبي. لا بد أن تكون هذه المحاكم محاكم حرب أهلية، يعني المحكمة التي تدافع هي والمتهمون عن القيم نفسها التي يمكن أن نرد بها على الأثينيين. لكن أي أثيني أفضل من سقراط؟ الذين أدانوا سقراط لم يكونوا الفرس ولا الكورنيتيين بل كانوا أثينيين. إن أفضل طريقة لجعل سوء الفهم واضحا هو أن يكون الذين أصدروا الحكم بالإدانة يدافعون عن قيم المدان نفسها. في سوء الفهم هذا ينسل الإختلاف بين الروح والخطاب. بالطريقة نفسها يمكن القول أيضا أي يهودي أفضل من المسيح؟ هنا أيضا، لم يدن المسيح من قبل الرومان، من قبل الطرف العدو بل من قبل هؤلاء الذين يقولون ما يقول. و جان أُدينت من قبل الكنيسة التي عادت بعد بضعة قرون لتجعلها قديسة. هنا أيضا يمكننا القول أي مسيحي أفضل من جان؟ شاءت الأقدار أن تكون المحكمة الكنسية هي التي تدينها لكي يتفجر إيمان جان بكل نقائه، الإيمان الذي كان يمكن أن يتفجر بقوة أكبر لو أنها أدينت من قبل وثنيين، أو رومانيين، أو أشرار يلقون بالمسيحيين في المحارق. إن الحقيقة لا تتفجر بكمالها إلا في سوء الفهم الذي يعين مكان الروح الحرة. إن الضمير لا يدعى الى كامل حريته إلا بإضطلاعه بهذه المأساوية العليا التي هي مأساوية سوء الفهم. أنت تقول ما أقول، أنا أقول ما تقول، أنا أدينك وانت تدينني. سوء الفهم هذا يُظهِر خلف الكلمات نفسها سلطات أخرى. نحن لا نقول إلا ظاهرا الشيء نفسه كما هو ملموس جدا عند أفلاطون عندما يقابل سقراط آنتيوس الذي هو مثله يرى أن السفسطائيين أناس خطرون، مع ذلك فآنتيوس هذا هو الذي يحكم على سقراط بالموت مساويا له بالسفسطائيين. كيف نجد وصفا مناسبا لعجز المحكمة عن تقديم حجة أخلاقية، ومن باب أولى، كيف نجد الوصف المناسب لعجزها عن تقديم أية حجة دينية؟ إن المحير أكثر هو أن هذه المحاكمات الثلاث هي محاكمات دينية، يعني محاكمات فيها السلطات تستند الى المطلق، عن قناعة وإيمان . هذه السلطة المستندة الى المطلق تتدخل ، بكل عنف المطلق، بين التأريخ وسير المجتمعات. ليس من بعد إنساني أكثر عنفا من البعد الديني. يمكنني أن أجعل ميولي نسبية ولكني لا أستطيع أن أجعل علاقتي بالله نسبية. إذن إذا أدخلت المطلق في ميدان النسبي، عندها، أجعل العنف الأقصى ممكنا. إدخال المطلق في ميدان النسبي هو الشر بعينه. بالأحرى علينا أن نتساءل

إذا كان يجب أن يكون لنا نقطة عبور من المطلق الى النسبي فأين تكون؟ لن تكون هذه النقطة بأية حال داخل محكمة.

إن نقطة العبور الوحيدة من المطلق الى النسبي هي الضمير. لهذا السبب هو مناسب لإحالة كل مؤسسة الى نسبيتها. لكن هذا الضمير لايمكنه أن يوضح أنه النقطة الوحيدة من النسبي الى المطلق إلا أن يكون في أضعف حالاته. مفهوم أن جان قديسة بوصفها شهيدة وليس بوصفها بطلة، وجميل أن تكون قديسة بوصفها شهيدة الكنيسة. كذلك لم ترفض جان المحكمة ولكنها وضعتها، بإسلوب فكه، داخل نظامها. من جانب آخر لا يوجد شيئ غير الفكاهة يمكنه فعل هذا. لم تكن توجد عزلة أقسى من عزلة جان، وقد خانها من كرسته ملكا، وهجرها أصدقاؤها، داخل سجن كريه، محاطة بأناس مصممين على إدانتها. إننا لنعجب اليوم بالأحرى بوقاحتها العنيدة التي تجعلنا نشعر أننا أمام كلام طلق.

محاكمة (روين)

دون كاتب المحكمة نص محاكمة الإدانة بالفرنسية وعملت منه خمس نسخ باللاتينية وصلتنا منها ثلاث نمتلك بالإضافة إليها جزءا من النسخة الفرنسية التي إحتفظ بها أحد الكتبة الموثقين في المحكمة، ووصلتنا عن طريق (غيوم مانشون)، ما يسمح لنا بمقابلة مقاطع معينة من النسخة الفرنسية مع النص اللاتيني ونستعيد "صوت" جان الذي بهت قليلا في النص اللاتيني. تكشف لنا عن صوت جان النسخة الفرنسية التي إحتفظ خصومها بنصها لإدانتها. لا نملك للأسف نص محاكمة (بواتير) ولكننا لا نفقد الأمل في العثور عليها يوما. إن تصويرات المحاكمة تختلف كثيرا، فنحن نلاحظ أحيانا السجية القبيحة للقضاة الذين جرى تقييمهم بشكل خاص في فيلم المخرج (درير) حيث نرى قضاة عنيفين منتفخين يزعقون في أذن جان النصرانية والمكتئبة، ولخلق توازن في الأثر المغلوط الذي تؤدي إليه رؤيتنا في قضاة جان أناساً قذرين منحرفين عن جادة الصواب فقد بولغ أحيانا أخرى في النص بتقدير صفاتهم كرجال قانون، ومثقفين رفيعي المستوى. أدينت جان في الواقع من قبل محكمة مكونة

من أعضاء في جامعة باريس التي كان الأسقف (كوشون) عميدها، وكان معاونو القضاة أساتذة في جامعة باريس. كان أمامها إذن أعظم ثيولوجيي عصرها. كانت المحكمة في قسم منها مكونة من ممثلي محكمة التحقيق الذين أبدوا تكتما ما دام ممثل محكمة التحقيق (ه م 2) توارى منذ المشهد الأول تاركا الساحة كلها لأعضاء جامعة باريس، لنراه يعود للظهور في النهاية. إذن فقد أدانها أعظم مثقفي عصرها الذين كانوا من جماعة آل بورغينيون. هؤلاء الحكام، وهم ليسوا فاسدين ولا كاملي الأهلية كقضاة، تلاعب بهم حتما الإنكليز الذين قرروا الحكم مقدما. نحن إذن أمام محاكمة لها غايات سياسية ما دامت تتعلق بالإنتقاص من شارل الثاني عشر كملك بإظهار أن من نصبته ملكا ملحدة (1). لم يشترها الإنكليز من آسريها آل بورغينيون بثمن غال إذ لم يزايدهم ملك فرنسا عليها (ه م3). حين علمت جامعة باريس، التي كانت تابعة جزئيا لآل بورغينيون، بالإمساك بجان بعثت رسالة الى ملك الإنكليز تقول:

"الى سمو أمير فرنسا وإنكلترا، علمنا مؤخرا أنه بعظيم سلطانك قد تم إحضار هذه المرأة التي تسمي نفسها العذراء، وهو ما كان مبعث غبطتنا. نحن على ثقة من أنه بأمرك المطاع ستقدم هذه المرأة أمام العدالة لتكفر عن شرورها وفضائحها التي طبقت الآفاق في هذه المملكة، بتلويثها الطهارة الإلهية لإيماننا المقدس وإيمان جميع أبناء شعبنا".

وكان رد الإنكليز واضحا:

" يهمنا أن نسترد ونسترجع هذه المرأة بين أيدينا في حالة لم تُثَب الى رشدها أو أنها مصابة بلوثة الإلحاد أو بأي شيء آخر يمس إيماننا"

هذا يعني أنها إن لم تدن فإن الإنكليز سيسترجعونها. الحكم إذن مسبق، ليس من قبل ملك إنكلترا الذي لم يكن قد بلغ وقتها عشر سنوات بل من قبل الوصي على العرش وارويك Warwick. من الأدلة الناصعة على أن الحكم كان مقررا مسبقا عندما مرضت جان في السجن سارع الكونت وارويك الى إرسال طبيب خوفا من أن تموت قبل أن تدان. كان وجود الإنكليز مستمرا. لدينا حتى سجلات حسابات الإنكليز الذين أولموا في يوم 13 آيار لجميع القضاة ومعاونيهم وليمة فخمة. من الجدير بالذكر أن جان ماتت يوم 31 آيار. نرى بأن الإنكليز وفروا الوسائل وأن استقلالية المحكمة لم تضمن تماما.

شاب هذه المحاكمة الكثير من المخالفات وهذه بعضها. المخالفة الأولى أن جان حبست في سجن مدني في حين أنها قدمت الى محكمة بتهمة الإلحاد وكان يتوجب حبسها في سجن كنسي. كانت وهي في سجن مدني محروسة بجنود إنكليز حاولوا اغتصابها. المخالفة الثانية أنها لم يكن لديها محام ولم يتم إطلاعها على أي شيء عن محاكمتها. عندما أرادت، وفقا لحقها الأكثر شرعية، أن تحال الى البابا لم ينفذ طلبها. وأخيرا فإن فعل الإتهام، من وجهة نظر نص المحاكمة نفسه، هو إخلال بالإيمان. إن ما يظهر لنا بشكل أفضل صفة المحاكمة المقررة مسبقا هو القصة الغاية في الغرابة لتراجع جان عن أقوالها. في يوم 27 آيار، وأمام المحرقة، عندما وجه إليها إنذار المحكمة الأخير، تنهار جان، كما يبدو، وتوقع إقرارا بتراجعها عن أقوالها تنكر فيه أصواتها (ه م 4)، والجانب الإلهي لمهمتها، وتقول أنها كانت على ضلال، وتفوض أمرها كليا الى سلطة الكنيسة، فما كان من الإنكليز إلا أن ثارت ثائرتهم وهاجموا (كوشون) الذي لم يكن لديه بالنتيجة أي بديل يمكنه أن يضع أمله فيه. في الواقع أن كوشون أمام تراجع جان، وهو مجبر على مراعاة الإجراءات، كان مستعدا للتصرف وفق ما يمليه عليه ضميره بعدم إعدامها. مع أنها تراجعت، ويتوجب أن تكون في سجن كنسي، لكنها أعيدت الى السجن نفسه بملابس نسائية، وتعرضت منذئذ فصاعدا الى عنف متزايد من قبل سجانيها ما أدى بها الى أن تعدل عن تراجعها وتدان وتعدم فورا بوصفها مرتدة الى الإلحاد. هذه المحاكمة السياسية استخدمت أسبابا دينية كستار لدوافعها الحقيقية.

معركة زمنية، معركة روحية

"هل كان الله هو رب الفرنسيين وحدهم؟". بعبارة أخرى ما هي العلاقة بين مهمة جان السياسية والبعد الديني لهذه المهمة؟ أية عدالة سياسية لخيارات جان في هذا؟ توجد نقاشات مفتوحة دائمة حول هذه النقطة. يمكننا أن نجعل من السياسة خيالا أدبيا ونقول لأنفسنا بعد كل شيئ كان من الأفضل أن يوجد ملك واحد على فرنسا وإنكلترا فتتقدم أوربا بوتيرة أسرع وربما تحمي المسيحية بشكل أفضل. لم يكن لهنري السادس فقط من المؤهلات الكثيرة ما

يتفوق بها على شارل الثاني عشر ليرغب في أن يكون ملكا على فرنسا، بل هو أيضا ملك فرنسا شرعيا. إن الخيار السياسي نسبي: إنه خيار الإنتماء الى معسكر. تكمن القضية في معرفة ما إذا كانت قدسية جان تجعل من معسكرها مقدسا. كل أنواع سوء الفهم لجميع من هم من صنف (كوشون) تأتي من الإقتناع بأنه مادامت جان كانت قديسة فأن قضيتها مقدسة، في حين أن قدسية جان متعلقة بمطلق الضمير، وقضية جان نفسها متعلقة بإنعدام ضمان نتائج المعارك.

يوجد قديسون ملغزون، وقديسون أساتذة، وقديسون علماء، وقديسون لهم كل أنواع المهمات، ولا يوجد الكثير من القديسين الذين تنجز قدسيتهم في مهمة واحدة هي ظاهرا حربية. إن هذا لشيء مذهل... هل يمكن أن تكون هذه الشابة الصغيرة التي حملت السيف الذي قتل الناس قديسة؟ (هـ م5) كان أحد أهداف المحاكمة من جانب آخر أن تحدد فيما إذا كانت جان عنيفة وحقودا، ولو أمكن لأحد أن يقنعها بهذا لوضعها في موقف صعب. كانت بالتأكيد لا تحب الإنكليز وتفضل أن يكونوا خارج فرنسا. صرحت في قريتها (دومريمي) بأنه يوجد واحد من آل بورغينيون رغبت لو أن رأسه قطع إذا ما أراد الله. إن تعاطف جان ذهب لصالح قضية ملك (بورجيه)، ولكن هل يشكل تعاطفها الشخصي جزءا من قدسيتها؟ هل يكفي التعاطف لتكريس وشرعنة القضية التي تدافع عنها؟ إن دعمها للملك سيكون هو الخطأ نفسه الذي وقع فيه قضاتها بالضبط. إنهم في الحقيقة تمسكوا بأنهم لو أفحموا جان من وجهة النظر الروحية فإنهم سيبطلون قضيتها من وجهة النظر البشرية. من يقول بأن قدسية جان تفوضها من وجهة النظر البشرية يرتكب الخطأ الفاحش نفسه. إن الرهان من دون شك يكمن في العلاقة بين الزمني (الدنيوي–م) والروحي (الديني–م).

للمضي في هذه المسألة المتعلقة بمعرفة ما إذا كان الله رب الفرنسيين وحدهم نعود الى النص.

تُسأل جان إن كانت القديسة كاترين والقديسة مارغريت تكرهان الإنكليز فترد قائلة:

- **إنهما تحبان من يحبه الله وتكرهان من يكرهه الله.**
- **هل يكره الله الإنكليز؟**

- **لا أعرف شيئا عن الحب أو الكره الذي يكنه الله للإنكليز وعما فعله لروحهم، ولكني أعرف أنهم سيطردون من فرنسا ما عدا الذين سيموتون على أرضها، وإن الله سينصر الفرنسيين على الإنكليز.**

- **هل يكون الله رب الإنكليز حين يحرزون النصر في فرنسا؟**

- **لا أعلم إن كان الله يكره الفرنسيين ولكني أؤمن بأنه يأذن بأن يعاقبوا على خطاياهم إن كانت لهم خطايا.**

عند هذه النقطة الحاسمة لا تكف جان عن القول أنها تستسلم لقضاء الله. من المثير للإهتمام أن نرى أنها، في أية لحظة، لم تضع الله في خدمة قضيتها. في كل لحظة تعبر عن إستسلام كامل لقدرة الله وعن ثقة تامة به. إنها ليست في معسكر الله والإنكليز في معسكر الشيطان. إن قدسيتها هي قدسية روحها وليست قدسية قضيتها. هي لا تقاتل في سبيل الله بل تقاتل في سبيل ملكها. هذا هو إنجازها، فعلها، وبمقاييس الأشياء فإن مهمتها نسبية. يمكنها أن تقاتل، بكامل ثقتها بالله، في سبيل ملكها. مثلما أن مدير المستشفى المسيحي الذي يدافع عن مستشفاه لا يقاتل في سبيل الله ولكن في سبيل الحرية وفي سبيل مؤسسته. تُسأل جان لكي تحرج:

- **أية ضمانة وأي عون تنتظرين من الله من أجل ما ترتدين له زي الرجال؟**

تجيب:

- لست أنتظر ثوابا لإرتدائي هذا الزي أكثر من أي شيء فعلته سوى خلاص روحي.

لهذا السبب نحن في صميم سوء الفهم، فالقضاة وجان يقولون الشيء نفسه. يجري القضاة محاكمة سياسية بدوافع دينية، ولهذا فهم داخل الخلط بين الزمني والروحي. لجان مهمة زمنية بتكليف ديني، إنها داخل وحدة الزمني والروحي. إن خير ما نسعى إليه هو معرفة الفرق بين خلط الزمني بالروحي وبين إتحادهما! الخلط بين الزمني والروحي هو كالخلط الذي أُستخدم أداة من قبل المحكمة، أو من قبل الخصوم السياسيين الذين أرادوا تجنيد جان لخدمتهم، أما إتحاد الزمني والروحي فهو كالإتحاد الذي أُعلن في ضمير الشابة اللورينية الشفاف. فلنحاول!

شيء مثير للدهشة، فقصة حياة جان المليئة بالعجائب دون شك لا تظهر هذه الأعجوبة ضمن الفعل العسكري. لا وجود لمعجزة، ولا أعداء تصيبهم الصاعقة، ولا شمس توقف في السماء ليتسنى إحتلال أورليون. إن فعل جان العسكري ليس إلا فعلا عسكريا بكل بساطة، خلوا من كل تدخل إستثنائي. من المؤكد أننا مندهشون قليلا لأن فتاة شابة عمرها 16 عاما تقود جيشا، ولكنها كانت في الواقع مسندة من قبل دينوا Dunois(ه م 6). هذا هو ما يجعلنا نمقت الكثير من مصورات القرن التاسع عشر التي تظهر لنا جان دارك وهي ترد بطريقة خارقة قطعان أشرار إنكليز على أعقابها، بالضبط كما لو أنها مُدَّت بقوة خارقة من أجل أن تنتصر. نحن نعرف مع ذلك أنها غيرت من عادات الجنود، ودعتهم الى الإعتراف ، وأنها طردت العاهرات من الجيش، ومنعت النهب، وحمت الجرحى الإنكليز. في الوقت الذي لم تنجز فيه أعمالا حربية خارقة قاتلت جان بوسائل عادلة وأحيانا مغرقة في العدالة، وهذا ما يجعلنا نفهم الإدراج الزمني لمعركة جان. إن للمهمة السياسية صلاحيتها ضمن نسقها، ضمن عدالتها الخاصة بها. تملك صلاحيتها بالمعنى الذي لا يمكن تبنيه إلا أن يكون الروحي منفصلا تماما عن كل إرتباط زمني، وهو ما لن يكون من جهة أخرى ممكناً. إن الدفاع عن الأرض مقدس ولكن الأرض غير مقدسة، وهذا فرق جوهري. من جهة أخرى أحب أن أستشهد بأفضل مفسر هو (بيغي) péguy (ه م 7) الذي غالبا ما يعود الى الحديث في هذه المسألة. أستذكر هذا النص المستعاد دائما:

سعداء من ماتوا لأجل الأرض الدنيوية

لكن شرط أن يموتوا في حرب عادلة.

سعداء من ماتوا لأجل أربعة أركان أرضية،

سعداء من ماتوا ميتة إحتفالية،

سعداء من ماتوا في المعارك العظمى،

ممدين على الأرض أمام الله،

سعداء من ماتوا على مكان أخير عال

وسط زينة المآتم الكبرى.

سعداء من ماتوا لأجل أفكار دنيوية،

لأنها جسد المدينة الإلهية،

سعداء من ماتوا لأجل أرواحهم ونارهم

والشرف الفقير لمنازل أهلهم

لأنها الصورة والبداية

وجسد بيت الله وتجربته

سعداء من ماتوا في هذا العناق

بين ضمة الشرف والتسليمة الأرضية.

نفهم أن بيغي الذي تأمل، منذ نعومة أظفاره، في شخصية جان قد نطق بهذه الكلمات مفكراً في تأريخ جان، ومذكراً أن عز الإنسان دفاعُه عن موقده ومكانه، وأن من لا يدافع عن أرضه شقي. نعم ولكنه قال قبيل ذلك:

ترونا واقفين بين الأمم،

هل نتقاتل دائما لأجل الأرض الدنيوية؟

ألا نضع أنفسنا بهذا على اللائحة الأبدية

من قلوب طافحة بالحرب والفتنة؟

وقبلها بقليل، بإسلوب أكثر حدة، يخاطب حواء أم جميع البشر الذين عانوا من المذابح عبر التأريخ:

لقد وضعْتِ منهم الكثير داخل سر القبور،

الوحيد الذي لن يكون مكشوفا أبدا،

الوحيد الذي لن يكون مذاعا أبدا،

هؤلاء الذين سقطوا كالأضاحي،

مقربين الى رب ليس هو الرب الحقيقي،

مطعونين على مذبح ليس هو الهولوكوست،

مفقودين في المعركة أو في موقع متقدم،

صرعى في مكان ما ليس هو المكان الحقيقي.

ليس بوسع المرء إلا أن يقول أن الحروب مذابح مكرسة لأرباب مزيفين. هكذا من الأفضل أن نتقاتل من أجل أرباب مزيفين على أن لا نتقاتل. ولكن يبقون أربابا مزيفين يتوجب بحق أن ينظر إليهم بوصفهم رهانات معركة نسبية. نسبية وجدية، لأنه من أجل أن تكون جدية لا حاجة لأن تكون مطلقة. من يريد أن يجعل معركته مطلقة ليسبغ عليها الجدية يحكم على نفسه بالعنف. ومادام الأمر هكذا فإننا لسنا مسؤولين في هذه المعركة، والنقطة الحاسمة، هي أننا لسنا سوى وسائل ولسنا غايات. ليست الغاية هي التي تبرر القتال أبدا لأن جميع الغايات موضوع تقييم نسبي. الشيء الوحيد الذي أعول عليه في شرفي كإنسان هو نزاهة الوسائل. إن قضاة جان يعتمدون الوسائل للوصول الى الغايات. من أجل قضية يقدرون أنها عادلة يلجأون الى محاكمة مزيفة. لم لا؟ لا بد من توسيخ الأيدي! ولكن هذا سياق عكس العلاقة بين الزمني والروحي. إن الذين يدعمون فكرة أن المعركة الروحية الحقيقية هي المعركة الزمنية عليهم أن يولوا إهتماما لحقيقة أن المعركة الروحية الحقيقية ليست معركة زمنية إلا بالوسائل التي تستخدمها. هذا هو بالضبط ما تبينه لنا جان. إستقامة الضمير فقط هي التي تبرر القتال. وهكذا فإن واحدا هو (كوشون) يضع ثقته في عدالة قضيته وموسوس نوعا ما بشأن الوسائل، والآخر هو جان لا تضع ثقتها في قضيتها بل في ربها. ما تفعله هو الإنتباه الى عدالة الوسائل التي يتوقف أمرها علينا فقط. يوجد إذن فكر زائف للتجسيد يقول بوجوب إستخدام وسائل غير نظيفة، عدم التردد في توسيخ الأيدي، وفكر آخر للتجسيد يدعم القول بإستخدام وسائل نظيفة معروفة فقط من قبلنا، بينما الغايات غير مؤكدة وهي في نهاية المطاف موكلة الى الله. لهذا السبب تقول جان أنها قاتلت بأفضل ما يمكنها ولكن الله هو الذي سيفعل ما يشاء بالإنكليز. من جانب آخر فإن النصوص القليلة التي لدينا من محكمة

(بواتير) تبرز هذا. عندما يسألها القضاة إن كانت تظن أنها بجيوشها ستطرد الإنكليز تجيبهم جان بأن الجيوش تقاتل ولكن الله هو الذي ينصر. لدينا أيضا ملاحظة هامشية وضعها كاتب المحكمة تقول "جواب رائع!". إن التوفيق في الغايات لا يعود إلي وهذا هو الشرط الوحيد لعدالة الفعل السياسي.

إيمان جان

إن كانت توجد صلة بين الزمني والروحي، صلة بين النسبي والمطلق، فهذه الصلة تكمن في الضمير وليس في مكان آخر، ليس في أية مؤسسة، حتى ولو كانت الكنيسة: هذا هو مبدأ رفض عبادة الأصنام. نرى هذا من خلال علاقة جان بـ "أصواتها". في الحقيقة أن ما يدهشنا غاية الإدهاش هو أن جان لا تؤمن بأصواتها بل تؤمن بالله. إنها تتلقى من هذه الأصوات دعما ومشورة ولكن عملها الإيماني بين يدي الله. إن محاولة خلط الأمور شرعيا بوصفها ملحدة هو بالتأكيد عمل يدل على أن المدعي على جان يؤمن بهذه الأصوات كما تؤمن هي. حين تسأل إن كانت ترى أن هذه الأصوات مرسلة من عند الله تجيب " أردت أن أؤمن بذلك" وتجيب على سؤال "هل تؤمنين بأصواتك" بقولها "أؤمن بالله فقط"، وعلى سؤال إن كانت تعرف أن هذه الأصوات تأتي من عند الله تجيب بأنها أرادت أن تؤمن بهذا وتجد في الدعم الذي تتلقاه تأكيدا على أنها من عند الله. أنتم تعرفون العبارة الشهيرة:

"شاء الله أن يفعل هكذا على يد عذراء بسيطة ليجبر كسر أعداء الملك"

بالطريقة نفسها يمكن أن نهتم برابطة جان مع عذريتها وهي التي تسمت بإسم "العذراء". يعزو أعداؤها أهمية عظيمة الى هذه العذرية لأنهم يرون فيها سلطانا سحريا، ولكن جان أبعد من أن تدعيه. إنها تقول أنها نذرت عذريتها لأصواتها وهي في عمر الثالثة عشر حتى يشاء الله

غير ذلك. إذن هو ليس نوعا من سلطان محروز بل طريقة للتعبير عن هبة لوجه الله وفعل إئتمان. تُسأل:

- ألم يوحى أليك أنك إذا فقدت عذريتك فإن الأصوات لن تأتيك بعد؟

- لم يوحى لي بهذا.

- لو كنت متزوجة هل تعتقدين أن الأصوات كانت ستأتيك؟

- لا أعرف. أنتظر خبرا عن هذا من مولانا.

هكذا هي لم تربط في أية لحظة أي صدى خرافي بالحفاظ على عذريتها. إن كانت تضعها في المقدمة فليس لكي تعطي قوة لمهمتها بل لكي تجعل كامل هبة نفسها في هذه المهمة شرعيةً.

الجانب الثالث هو ثقتها الكلية بالنعمة الإلهية. كلنا يعرف جوابها على هذا السؤال:

- **هل أنت في نعمة الله؟**
- **إن لم أكن فيها، يضعني الله فيها، وإن كنت فيها يحميني الله. سأكون أكثر الناس شكوى إن علمت أني لست في نعمة الله. وإن كنت ممنوعة فإني أعتقد أن الصوت لن يأتيني عندئذ، وددت لو أن كل واحد يسمعه كما أسمعه.**

يتفق أن تكون لدينا عدة نسخ من هذه العبارة لأنه بعد 25 سنة يتذكر الناس الذين حضروا المحاكمة هذه العبارة. قيض لنا أن نقابلها بالنص الذي لدينا في الوثائق اللاتينية والتي رأينا أن الناس يتذكرونها الى 25 سنة بعد المحاكمة، إنه الجواب المحكم. إحدى النسخ التي نقلت عن شاهد تقول:

- **إن كنت فيها يحرسني الله، وإن لم أكن فيها فعسى أن يضعني فيها الله لأني أفضل أن أموت على أن لا أكون في حب الله.**

يقول الشاهد بأن من كانوا يحققون معها بهتوا لهذا الجواب وتوقفوا فورا ولم يستجوبوها بعد.

أخيرا هذا الجانب الآخر من إيمان جان. الصلة مع الكنيسة. تسهم هذه النقطة في إدانتها بوصفها لم تكن تفوض أمرها للكنيسة، وقد كانت كذلك لأنها في مواجهة قضاتها الذين طلبوا منها أن تفوض فشهدت بتجربتها الخاصة وكانت منقادة بذلك الى جعل وجهة نظرهم نسبية. من هنا يتأتى تعقيد وعدالة أجوبتها المتعلقة بالكنيسة. في الحقيقة أنها عندما يسألها القضاة إن كانت تفوض أمرها الى الكنيسة تجيب بالتأكيد ولكنهم حين يشرحون لها بأن الكنيسة هي هُمْ وعليها أن تفوض إليهم أمرها ترفض. واضح أنه في هذا التلاعب توجد كل الرابطة مع الكنيسة، والتي وفقا له عوملت بوصفها طرفا في القضية أو بوصفها الحقيقة مقامة في المسيح. وهكذا فإن جان تجيب على سؤال لمعرفة إن كانت تفوض أمرها الى الكنيسة "أجل. أول من خدم المسيح". إن كان هذا الجواب من وجهة النظر الثيولوجية منزها عن الخطأ فإنه جعل الموقف نسبة الى الكنيسة كمؤسسة معقدا. أنظروا بالأحرى الى هذا:

- **هل تفوضين نفسك، قولا وفعلا، الى قرار الكنيسة؟**

- **أفوض نفسي الى الله الذي أرسلني، الى السيدة العذراء، الى كل القديسين والقديسات في الفردوس، وقد نبهني الى أن الكل يتبع الله والكنيسة وأنه لا يجوز للمرء أن يجعل من هذا شيئا صعبا فلماذا تريدون أن تصعبوا هذا الأمر؟**

عندها يرد القاضي:

- **توجد الكنيسة المنتصرة حيث الله، والقديسون، والملائكة والأرواح المخلصة، ومن ثم الكنيسة المجاهدة حيث يوجد البابا، ظل الله في الأرض، والكرادلة وأساقفة الكنيسة، ورجال الدين، وجميع المسيحيين المسمون عن حق كاثوليك. هذه الكنيسة، مجلس الخير، لا يمكن أن تزل، وهي محكمة من روح القدس. لهذا أسألك إن كنت ترغبين بتفويض أمرك الى الكنيسة المجاهدة، يعني التي على الأرض كما أوضحت لك.**

- **أنا أتيت الى ملك فرنسا من قبل الله، من قبل مريم العذراء، ومن قبل كل القديسين والقديسات في الفردوس، والكنيسة المنتصرة في السماوات، وبقيادتهم، وأنا أفوض الى هذه الكنيسة جميع أفعالي الخيرة، جميع ما أفعله وما سأفعله. أما بالنسبة الى تفويض أمري الى الكنيسة المجاهدة لن أجيبكم بشيء الآن.**

- **إذا حدث وفعلت شيئا ضد الأيمان، هل تفوضين أمرك الى الكنيسة؟**

- **إن كانت أجوبتي سينظر ويدقق فيها رجال دين ثم يقال لي بعدها إن كان يوجد شيء يكون ضد الإيمان المسيحي فلن أعجز عن أن أقول التالي، سأقول رأيي حسب إجتهادي. إن كان يوجد شيء يسيئ الى الإيمان المسيحي المحكم من الله فلن أرغب في تأييده وسأكون مغضبة أن أقف موقفا مناقضا.**

المسألة هي العلاقة بين مطلب العدالة المضمر في الضمير وبين مقتضيات الفعل. يبدو أن مقتضيات الفعل تقودنا الى قبول التسوية، بل قبول التعرض الى الشبهات، الى درجة لا يوجد فيها تباين بين مطلب العدالة وضرورات الفعل. إن مكان الفعل النقي هو الضمير نفسه الذي بقراره وحده يكون هذا الفعل دون مقابل. إن أقامة دعوى في محكمة للحكم بشأنه يعني أن يعهد بالتوسط بين العدالة والفعل الى القانون وحده. والحالة هذه فأن القانون هو توسط بين مطلب العدالة والسلوك الفعلي. لكن هذا التوسط لا يتناول سوى الأفعال المنظورة. إن التوسط يرتكز دائما على روابط قوة. ما الذي يرفضه أساساً نقاءُ جان في مواجهة قضاتها؟ إنها ترفض روابط القوة التي تقف وراء كل مؤسسة عدالة، روابط قوة لا تستطيع أن تكون مستوفية إلا من قبل الذي يتبنى وجهة نظر الشهيد، إلا من قبل من يسعى فعله الى الإدلاء بشهادة قبل أن يهدف الى النجاح. يوجد بين الروحي والزمني إذن شخصان إثنان، وإثنان فقط، سيران لنقل الحركة.... (كوشون) و (جان). هكذا فإن جميع من أرادوا بطريقة أو بأخرى أن يحزبوا جان، أياً كان فريقهم، لم يفعلوا سوى وضعها في خدمة (كوشون).

==========

- **أستاذ الفلسفة ، أستاذ في الصفوف التمهيدية، مدير الكلية العليا.**

نشرت المادة في المجلة الفرنسية Esprit العدد 2007 Août–Septembre

بعنوان Jeanne d' Arch au tribunal

الهامش:

1- هذه المحاكمة ليست محاكمة قضية سحر بل محاكمة قضية إلحاد. إن أول محاكمة سحر وهي الوسواس الأكبر لمعاصرينا وقعت في العام 1456 . ما يُسعى لإثباته هو صحة عقيدتها وإستقامة سلوكها. لم يحكم بالموت على جان بوصفها ساحرة حسب إستيهام أناس القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، بل بوصفها ملحدة ومرتدة.

هوامش المترجم:

1- يعني بعد إعدامها بربع قرن.

2-ذات التأريخ الأسود في المحاكمات المذهبية والطائفية التي راح ضحيتها مئات الآلاف حرقا وتقطيعا في القرون الوسطى وأكثر ورود إسمها عندنا بالعربية بلفظ "محكمة التفتيش" .

3- أصبح الملك شارل الثاني عشر بعد تنصيبه، وفق نصيحة بعض مستشاريه، ميالا الى التفاوض لكن جان دارك والقادة العسكريين أصروا على تعزيز إنتصاراتهم والتقدم لتحرير باريس من الإحتلال الإنكليزي، وقد رافقهم الملك على مضض. عندما عسكر الجيش شمال باريس قامت جان دارك بقيادة عدة هجمات فاشلة لإقتحام الأسوار وهذا أعطى عذرا للملك لينسحب بجيشه الى منطقة أكثر أمنا. بعد ستة أشهر من التوقف إنفصلت جان دارك عن الجيش بكتيبة من الجند يوم 30 نيسان 1430 لمهاجمة باريس وفيما كانت تقوم بحركة إلتفاف حول باريس التي كانت تحت حصار جيش آل بورغينيون المنافسون لشارل وقعت في أسر هؤلاء ولم يستطع رفاقها تخليصها. لم يحاول الملك إفتدائها وباعها آل بورغينيون للإنكليز لقاء 16000 فرنك.

Encyclopedia americana . 1982. volume 16. Joan Of arch. P 148-150

4-كانت جان دارك تقول أنها تتلقى وحيا على شكل أصوات تسمعها تطلب منها أو تأمرها بتنفيذ الأعمال التي قامت بها، وعلى الأرجح أن الأصوات لم تعد تأتيها إعتبارا من إشتراكها في تنصيب شارل الثاني عشر ملكا، وإن ظلت تدعي، حتى ساعة إعدامها، أنها لم تنقطع عنها- المصدر نفسه.

5- صرحت جان دارك بأنها لم تقتل أحدا ولا سفكت دما وكل ما كانت تفعله هو أن تكون في طليعة هجوم الجيش - المصدر نفسه.

6- Count de Dunois (1403-1468) محارب فرنسي بارز وشجاع، لقبه "نغل أورليون" وذلك لأنه ولد من علاقة ملكية غير شرعية، قاد الكثير من المعارك، خصوصا، الى جانب جان دارك وكان معها في آخر معركة عندما أُسرت ولكنه لم يستطع إنقاذها- المصدر نفسه.

7- Charles Peguy (1873-1914) شاعر فرنسي ذو ميول روحية ممتزجة بميول إشتراكية. تحسس عذابات الناس وخصوصا فئات الكادحين، وأعجب بشخصية جان دارك ورأى فيها تجسيدا للمثال الإشتراكي. لديه الكثير من الأعمال الشعرية والنثرية وسفر ضخم من اليوميات والمذكرات. تطوع في الجيش "للقتال من أجل قضية عادلة"، وقتل في السنة الأولى للحرب العالمية الأولى التي سماها "آخر الحروب".

حياة بول ريكور

الفلسفة في قلب المدينة

فرانسوا دوس

François Dosse

(ربما تشكل قراءة هذه السيرة الموجزة مشكلة معلومات عند القارئ لإرتباطها بقضايا فلسفية وأحداث ليس لدى القارئ علم بها ولكنها بقليل من الصبر والاستقصاء تغني الجانب المعرفي عنده مع إقرارنا أنه لا بد للقارئ من قراءة أوسع في مصادر أخرى–المترجم)

*

لقد تأثر (بول ريكور)، المولود عشية الكارثة العالمية يوم 27 شباط 1913 في (فالينس)، تأثرا عميقا بأحداث قرن مأساوي عاشه بكامله، وهو منخرط كليا في رهاناته الكبرى من أجل توضيح معناها. تحدر من عائلة بروتستانية، يتيم منذ نعومة أظفاره أذ فقد أمه بعيد ولادته، ثم والده الذي يختفى في خضم معركة المارن في أيلول عام 1915. سرعان ما يحل ولعه بالكتاب والقراءة محل هوية راسخة يعيد بناءها مالئا بها الفراغ الذي يبعثه في نفسه الشعور

بالفقدان، هذا الفقدان هو مصدر لهوان شديد الوطأة، ودليل له على طريق الذات الذي يمر حتما بالآخر. يتتلمذ مبكرا في الحلقات الفلسفية فيتردد بانتظام على (جُمَع) غابريل مارسيل الذي كان له بمثابة المحفز. يتعلم من ندوات أيام الجمع هذه خصوصا الممارسة الواجبة على كل المشاركين في هذه اللقاءات وهي أن لا يتخذ من آراء غيره وسيلة بل يؤكد وجهة نظره الخاصة. من جانب آخر، وبخلاف الأعداد الأكثر كلاسيكية المتبع في الدراسة بالسوربون، يكتشف تمعنا فلسفيا يعطي الأولوية الى الفعل والحدث، وبهذا فهو يتحقق عبر التجربة، مثلما يعطي الأولوية الى الممارسة المتسائلة دائما التي لابد أن تحرك الوجود قدما.

في زمن الوجوديات

إن كون المرء في سن العشرين عام 1933 ، كما هي الحال بالنسبة الى ريكور الحائز على الليسانس في الفلسفة ويحضر للأستاذية ببحث حول مشكلة الرب عند (لاشيليه) و (لانيو)، يعني دعوة الى المشاركة فيما سيسميه جان توشار (روح سنوات الثلاثينيات)، وهو رفع همة شباب رافض باحث عن طريق ثالث، شباب يرفض بالإصرار نفسه مفهوم مادية فردية و مفهوم مادية جماعية على حد سواء. يولد ضمن هذا السياق عدد من المجلات ((المنشقة)) مثل (كومبا) و (أوردر نوفو) و (بلان)، ولكن المجلة التي تثير حماسه بشكل خاص هي (أيسبري) التي أسست عام 1932، وتمثل حماس شاب بروتستانتي مهتم بحرية الكلام وبيقظة تقوده الى تأسيس مجلة صغيرة هي (إيتر) بإلهام بارتي (نسبة الى كارل بارت). ينشر مقالاته المبكرة عام 1935 في المجلة المدهشة والمتفجرة (تير نوفيل) لسان حال (المسيحيين الثوريين التي كونها اتحاد المسيح والعاملون من أجل ثورة اجتماعية) والتي تضع على غلافها صليب المسيح والشعار الشيوعي المنجل والمطرقة معا على خلفية خارطة نصفي الكرة حيث تتوحد فرنسا والاتحاد السوفييتي باللون الأحمر. يلتقي ريكور، داخل تيار المسيحيين الراديكاليين هذا، بأندريه فيليب مرشح الجبهة الشعبية فيما بعد عام 1936 الذي حذره من مخاطر النزعة السلمية أثناء النقاش حول اتفاقية ميونخ.

سرعان ما يقع، وقد جند عام 1939 كضابط احتياط، بين فكي كماشة الجيش النازي الذي كان تقدمه اليومي على الأرض الفرنسية كاسحا. يرسل سجينا الى بوميراني الشرقية في معسكرات غروس–بورن ثم آرنسفالده لما يتبقى من زمن الحرب. في هذا المعسكر الأخير يجد نفسه في مرقد واحد مع رفاق سبعة كلهم مثقفون، فيعرف هذا (المطبخ) سريعا بين المعتقلين الآخرين بإسم غرفة Stube الفلاسفة. إذن يتقاسم ريكور حياته اليومية مع (روجر إيكور)، (جاك ديسيبيز)، (بول–أندريه ليسور)، (جان شيفالييه)، (فيرنان لانغرون)، (سافينا) و (ميكل ديفرين) وهذا الأخير فيلسوف مثله واشتغل معه على عمل (كارل ياسبرز)jasbers. تثمر هذه القراءة المشتركة لعمل ياسبرز أول عمل مطبوع لريكور عام 1947 (كارل ياسبرز والفلسفة الوجودية) بالاشتراك مع ديفرين. يترجم في الوقت نفسه هوسيرل، وهو مؤلف وضعه النازيون في القائمة السوداء، في غفلة من سجانيه، مضطرا الى استخدام هوامش Ideen 1 (1، هوامش المترجم)، ليدون عليها سرا ترجمة ستظهر لاحقا عام 1950.

يحتل ريكور عند خروجه من الأسر موقعا قياديا لمقاومة المحتل السلبية، في قرية (شامبون–سير–لينيون) التي خدمت المقاومة كمعبر وموقع استقبال لستمائة طفل يهودي أنقذوا من (الحل النهائي) بفضل شبكة يحركها Cimade والقسان (أندريه تروكمي) و (أدوار تيس). يدرس ريكور الفلسفة ، بعيدا عن الهيجان الباريسي، في هذا المعتزل من أرض (أوت–لوار) ويعد أطروحته عن (الارادة). يسحره المناخ الجماعي لأن المدرسين يعيشون في تكافل مع طلابهم داخل هذا العالم الصغير. كانت هذه الفترة التي أعقبت الحرب هي فترة انتصار الوجودية السارترية. يمر ريكور بدوره بالمرحلة الوجودية ولكنها وجودية يغذيها فكر غابريل مارسيل، وياسبرز، و كيركيغارد، يعني بخلاف سارتر، ليست شكلا من أشكال الاقتلاع في الزمن الذي يعنيه (وجود لذاته)، ولا حرية عدم، بل التزام كامل للوجود بوصفه فعلا، بوصفه وجودا مع الآخر .être–avec

تقود المهنة الجامعية ريكور الى مغادرة شامبون نحو ستراسبور حيث يستقر عام 1948 خلفا لـ(جان هيبولت). كان عمره عندئذ 35 سنة ويستعد لأن يحيا (ثماني سنوات سعيدة جدا) وسط ضيافة مؤمنة (confessante,2)، بين أصدقائه البروتستانت ومنهم (روجر ميل) و (جورج كازاليس) وجماعة (إيسبري). يكتب في تلك السنوات من الخمسينيات مداخلات في

مجلة (كريستيانزم سوسيال) حول مسائل جوهرية عن المجتمع من قبيل مقالات يعاد النظر فيها موسعا وتصبح سريعا مصدر الهام للكثيرين مثل (الفعل والكلام) 1953، وأيضا (le socius و القريب) 1954. كان ريكور ملتزما كذلك في المسائل المدرسية بقدر ما كان رئيسا للاتحادية البروتستانتية للتعليم بين 1947 و 1960، حيث يدافع عن علمانية مفتوحة، عن مواجهة، معارضا في الوقت نفسه دعوات الانكفاء على تعليم مذهبي confessionel، ومعارضا دعوات علمانيي الاقصاء في مناخ الحرب الباردة على حافة الهاوية، يدافع بصلابة عن طريق ثالث بين القوتين العظميين في سبيل المحافظة على السلم العالمي. حين يطغى الشعور باليأس كما في عام 1956 بعد أدلة تقرير خروتشيف، وتورط حكومة (جي موليه) في حرب الجزائر، والتدخل الفرنسي الانكليزي الاسرائيلي ضد جمال عبد الناصر، يحلل ريكور (المفارقة السياسية) في مجلة ايسبري. يدعو المثقفين الى عدم ترك ميدان السياسة، وهو ما يظل أمرا جوهريا في أطار بناء (الوجود معا) être–ensemble ، هو البعد الذي يبين ريكور أنه أكثر أصالة من مخاطر الانحرافات التي يفرضها الاستخدام المتصلب للسلطة (3).

عدا عن مواقفه السياسية كان ريكور في تلك السنوات بشكل خاص هو المعرف في فرنسا بفلسفة هوسيرل، مع (ليفيناس) و (ميرلو–بونتي). يستغرق، وقد أستهوته (ظاهراتية الادراك الحسي) لميرلو–بونتي، في (ظاهراتية الفعل) بوصفها ميدان تأمل. يدافع عام 1950 عن أطروحته في (الارادة) volonté التي هي، بالنسبة الى عمل ميرلو–بونتي، دراسة تكميلية. يحضر ريكور، الذي أصبح بروفيسورا له كرسي أستاذ، الى السوربون عام 1955. يتم أولا اختيار (جان غيتون) ثم ينتخب هو في السنة التالية.

في الوقت الذي تكاد فيه بنايات السوربون العريقة تنهد من كثرة الطلبة لا يجد ريكور الحوار الذي يحبه كثيرا مع طلبته، فمواهبه الشهيرة كتربوي تثير مدرجات الطلبة شديدة الازدحام ويحتشد الطلبة متهيبين من مناقشته، فيضطر الى القاء المحاضرات فقط.

يتعرف ريكور من جديد على الروح الاجتماعية لأهل ستراسبور بفضل جماعة إيسبري. يأتي اعتبارا من عام 1957 ليسكن (مير بلان) في (شاتني–مالابري) ضمن الجماعة التي أقامها عمانوئيل مونييه عام 1939. يجد هناك الدائرة الصغيرة لمحركي مجلة (إيسبري)، وتعيش

عائلة ريكور الى جوار عوائل فريس و دومينا و مارو، هؤلاء المسيحيون التقدميون الذين اتخذوا موقفا صلبا في رفضهم سياسة الحرب في الجزائر. سرعان ما يقارن مير بلان الذي يسكنه ريكور بـ(شاتو روج)، يهدده oas ، ويدافع عنه طلبة (آنتوني). في يوم 9 حزيران 1961 وفي ساعة مبكرة يشاهد ريكور دخول الشرطة الى بيته، ويحتجزونه لمدة 24 ساعة في المركز فيما يقومون بتفتيش البيت.

تحولات البنيوية ومغامرة (نانتير)

اعتبارا من عام 1960 بعد مقاله (الرمز يحفز التفكير) – إيسبري 1959 الذي شكل انعطافة في فلسفته، يضع ريكور توجهاته الظاهراتية تحت اختبار التساؤلات الصاعدة للعلوم الانسانية التي سترفع لواء البنيوية. يشبه ريكور فيما بعد في مساعيه الفلسفية في لحظة رئيسية برنامجه الظاهراتي بـ(تطعيم هيرمينوطيقي). يعبر هذا التطعيم عن نفسه في المقام الأول بالغوص في عمل فرويد (عن التأويل، بحث في عمل فرويد–1965)، وبحوار على مستوى القمة مع كلود ليفي شتراوس (إيسبري 1963) ومن ثم باشتراك صداقة وثقافة مع الغيرداس–جوليان غريماس. هذا هو الوقت كذلك الذي يكتشف فيها ريكور ويطبع في سلسلته التي تصدر عن دار سوي عمل الهيرمينوتي (4) الألماني هانز–جورج غادامير (الحقيقة والطريقة). يشغل ريكور، وهو فيلسوف حاضر في كل ميادين الحداثة ومرهف السمع لزمنه، اتجاه عدد لا يصدق من الأطروحات. معظم طلبة الفلسفة الذين لهم مشاريع بحوث ليست تقليدية يأتون لاستشارته. مع هذا يكون عليه أن يواجه الرفض القاسي من (ألتوسير) و (لاكان) وأنصارهم (5) الذين يعتبرون، بإسم علمية يفترض أنهم يجسدونها، هيرمينوطيقيا ريكور روحانية هرمة ولى زمنها قطعا. يؤدي هذا الى فترة زوال نفوذ مؤقت ضربت ريكور في ذروة الموجة البنيوية، فيما هو يقرر وقتها خياره الحداثي بانطلاقه في مغامرة (نانتير).

في عام 1964 وفيما تطرح للتداول مسألة مشاركته في تأسيس جامعة جديدة في الضاحية الباريسية (نانتير)، يغادر ويؤسس قسم الفلسفة ويوظف فيه، من بين آخرين، رفيق الأسر (ديرفين)، ثم بعده بقليل (ليفيناس).

يحذر، في تحقيق يجريه لصالح (إيسبري) حول العالم الجامعي، من استفحال المركزية ويصر على ضرورة مزامنة المحاضرات التي يلقيها الأساتذة مع أعمال للطلبة تحت الأشراف من أجل تنظيم أفضل لتكوين الطلبة. يتنبأ، حسب ما يفيد تحليله، بأنه بسبب انعدام التغييرات سيحدث انفجار مدرسي يمكن أن يتشظى ويتحول الى (كارثة وطنية). فليس مما يدعو الى الدهشة أذن أن يمثل الى جانب (آلان تورين) و (أونري ليفيبفر) بإسم (محاميي) كوهن-بينديت أمام اللجنة الانضباطية المكلفة بالبت في طرده من الجامعة. يعلق ريكور (تعليقا ساخنا) على الأحداث التي يشعر بأنه معها في جانبها الجوهري، ويعبر عن رأيه علنا في جريدة (لوموند) منذ تموز 1968. يدرك في الأحداث بوادر ثورة ثقافية خاصة بالمجتمعات الصناعية المتقدمة الواقعة فريسة للضياع. في عام 1969 بينما كانت جامعة نانتير تطبق إصلاح أدجار فور تشرع بالبحث عن عميد يكون مقبولا من قبل العناصر الأكثر راديكالية في الحرم الجامعي وتجد في ريكور رجل الحوار الضروري. يواجه بعد هذا بضع خيبات أمل لأن المرحلة تستعد نوعا ما لتبادل نقاشي وبنائي، لا بل لطعون ومواجهات لا تتوقف هدفها إعادة انتاج ما حدث في العام الماضي من تحريض على الشغب ومن قمع السلطة للمتظاهرين والمحتجين، والذي وظف تماما في آيار عام 1968 ولكنه تحول في العام التالي الى هجمات عقيمة تفتقر الى الادراك. يجري اجتياح مكتب العميد، الذي رفض حماية الشرطة، ويهان ريكور ويزعج يوميا الى أن تحل واقعة صندوق القمامة الشهيرة التي كان متنكر بزي غريب يحرض عليها. تتضاعف دلالات التعاطف مع ريكور، ولكن التوتر يتصاعد في نانتير، فيقرر ريكور ومجلس الجامعة، كإجراء احترازي أكثر مما هو قمعي، خشية انفلات سلسلة أحداث تودي بحياة إنسان، أن يضع حراسا في الحرم الجامعي. لكن ريكور لم يحسب حساب النية المؤكدة لوزير الداخلية آنذاك (ريمون مارسيلان) في الاشتباك فيرسل هذا دون أن يعلم العميد فرقا من الشرطة الى الحرم فتكون النتيجة يوما لا ينسى لحرب عصابات عنيفة لم يسبق لها مثيل مع الشرطة العاجزين عن محاصرة المباني ويعانون من القذائف التي يطلقها الطلبة المرتقين أسطح بنايات الجامعة. يصل اصرارهم الى ذروته عندما يتوجب في النهاية على أفراد الحرس أن يقفوا بين قوات الأمن وبين الطلبة المجتمعين في المطعم الجامعي ليتسنى لهم اخلاء الأماكن التي امتلأت بدخان القنابل المسيلة للدموع، تكون حصيلة هذه المواجهات ليست أقل

من 187 جريحا ! يقدم العميد ريكور استقالته يوم 9 آذار عام 1970 وهو يشعر شعورا مرا بأنه قد خدع.

(النفي) الظاهر

هذه الصدمة بالاضافة الى صدمة ترشيحه عام 1969 الى (الكوليج دو فرانس) التي فضلت عليه (ميشيل فوكو) تقوده الى التحول نحو أمريكا. يفيد من هذه الانتقالة في توصيل الأجوبة الفلسفية عن الإشكالات apories الخاصة بالمثال البنيوي الى أماكن بعيدة. يجد أول ملاذ له في جامعة (لوفين) حيث يلقي الدروس لمدة ثلاث سنوات في هذا المكان السامي للظاهراتية حيث توجد أراشيف هوسيرل. يخلف (بول تيليش) في (ديفينيتي سكول) بشيكاغو، وكان قد أعتاد على القيام بجولات مؤتمرات في الولايات المتحدة حيث كان يدعى بانتظام منذ عام 1954 . يدخل اعتبارا من عام 1970 أستاذا لقسم الفلسفة في جامعة شيكاغو وهو المنصب الذي شغله حتى عام 1992. إن ما عُدّ نفيا من فرنسا لم يكن في الحقيقة كذلك لأن ريكور يستمر في السكن في شاتني–مالابري. إنه ببساطة يقسم وقته بين فرنسا والولايات المتحدة حيث يرتبط بعلاقة صداقة مع (ميرسيا ألياده) (6). يديران معا بضع حلقات دراسية ويقومان بعدد من الرحلات. وبينما يستمتع ريكور بسعادة أن يجد امكانية تبادل فكري حقيقي مع طلابه في حرم جامعة شيكاغو يشهد أيضا النجاح الفائق لأعماله في الولايات المتحدة. يجعل من نفسه في الولايات المتحدة معرفا بالهيرمينوطيقيا في مناخ جامعي تهيمن عليه الفلسفة التحليلية دون منازع، والتي يناقش أطروحاتها ويؤكد في الوقت نفسه غناها و اشكالاتها apories . يظهر خلال سنواته (الأمريكية) عملان مجملان عام 1975 ثم ما بين عامي 1983 و 1985 هما الأجوبة الحقيقية على البنيوية يسمحان بتحديد منجزاتها مع متابعة التأمل وتجنب طرقها المسدودة. يستحضر، بطبعه (الاستعارة الحية) عام 1975، الحالة الحية للمرجع، بمعنى frege ، بما في ذلك العمل ضمن الأشكال الأكثر بلاغية. يرد في ثلاثية (الزمن والسرد) على المؤرخين الذي يظنون أنهم أقصوا السرد ورموا به في صناديق قمامة التاريخ بإسم (اشكالية السرد التاريخي)، وبإسم علمية كمية تعتبر أن الحقيقة التاريخية شيء ثانوي في حاسوب.

يبين ريكور على العكس وحدة الجوهر لكل خطاب في الزمنية مع الأصول القصصية. حتى أطروحة بروديل التي تسعى لقطع الصلة مع مفهوم (تأريخ–قصة)، بعكس الذات لتصبح هذه الذات ليست فيليب الثاني بل المعتبر متوسطيا (نسبة الى البحر الأبيض المتوسط) وله أيقاع زمني مدته طويلة جدا يكشف، رغم أنكاره، عن أصول السرد نفسها. إن هذه الأجوبة المناسبة هي التي تؤدي الى عودة ريكور الى المشهد الفرنسي فيما يبلغ تعثر المثال البنيوي في العلوم الاجتماعية درجة عالية من الوضوح بحيث أن البعض ينبه الى ضرورة (غسيل كبير) لمرحلة البنيوية المنصرمة.

التكريس

في عام 1988 تدق ساعة التكريس حين يكتشف جيل شاب مثقف بكامله اكتشافا نهما قوة وتماسك فكر يغتني باستمرار دون أن يتوقف عن الحفر في الاتجاه نفسه. بل إنه يصبح بالنسبة للكثيرين نموذجا للمثقف الذي يتلقى التساؤلات من الأحداث دائما ويحاول أن يجيبها ليس بوصفه أستاذا مفكرا بل أستاذا في التفكير. إنه، وهو سابق لعصره، متجنب للإفتتانات الفكرية المتوالية، المتناقضة في اسرافها، طليعي في إنارة متأخرة للفلسفة التحليلية في فرنسا، وفي إعادة اكتشاف الظاهراتية، عابر نموذجي، يستقر عند تقاطع ثلاثة أنهر عظيمة، عند تقاطع ثلاثة تقاليد فلسفية: الفلسفة التأملية الفرنسية، والفلسفة القارية، والفلسفة التحليلية. في هذه السنة 1988، يصدر عدد من مجلة إيسبري مكرس له، وتنشر أعمال (يوميات ريكور) يشترك في تنظيمها المجلة، ومركز سيفر، ومركز بومبيدو. في السنة نفسها يتخذ (عقد سيرزي) بإدارة جان غريش و ريتشارد كيرني، (فكر ريكور) موضوعا له، والذي كشفت أعماله غنى أطروحات تغذي بغزارة ميادين العلوم الاجتماعية المختلفة، وميادين التأريخ، وميادين التحليل النفسي، مرورا بالألسنية، والسوسيولوجية، عدا عن إسهامه، الأكثر خفاء، وهو مع ذلك جوهري، في الميدان التفسيري.

إن رفد ريكور هذا الميدان، معروف بدرجة أقل، ومع ذلك هو رفد جوهري تماما لأنه وجه عمل إزالة الميثولوجية من جهة الفكر الكاثوليكي ومن جهة الفكر البروتستانتي على حد سواء.

أصبح ريكور منذ 1961 أحد أعمدة ندوات كاستيللي التي تنظم كل سنة في روما. سيرافق من جهة البروتستانت جيلا كاملا، من كارل بارت الى بولتمان، مفضلا الأنواع الوجودية للحاضر، وجودية الأحداث في قراءة الأنجيل بإخراج الأهمية، التي منحت حتى ذلك الوقت للدوغماتية، من مركز النقاش. يبين، في مقدمته لكتاب بولتمان (يسوع)، بأنه حتى من المناسب الذهاب أبعد في بسط النص، في تجريده من ميثولوجيته، التجريد الذي لا يجب أن يتوقف أمام فعل الكلام.

عند هذا يكون حديثنا متناولا لمدى كل العمل التدشيني للانعطافة البراغماتية والهيرمينوطيقية التي تبدأ بالاشتغال في العلوم الانسانية متلقية من ريكور تحفيزا كبيرا. يكون عليه، من بين أشياء أخرى، أن يبادر في نشاطاته كمحرر في دار سوي فيطلق عام 1964 مع (فرانسوا وال) سلسلة (النظام الفلسفي) التي يسرت التعريف بالفلسفة التحليلية الأنجلوسكسونية، وبفضله يستطيع الجمهور الفرنسي قراءة كتاب جون أوستن (عندما نتحدث فأننا نقوم بفعل) منذ 1967 وقراءة بيتر فريدريك أيضا منذ 1973. ندرك عندها أهمية كل الاعداد الجماعي ضمن إطار حلقته الدراسية المسماة (لا ري بارمنتييه) التي تصبح سريعا منطلق العمل الظاهراتي في فرنسا حيث يأتي عدد من الباحثين الأجانب، أمريكيين خصوصا، للعمل تحت اشرافه على المفصل الذي يربط ما بين الهيرمينوطيقيا والفلسفة التحليلية. يجدد أيضا (مجلة الميتافيزيقي والأخلاقي) القديمة (تأسست عام 1893)، محيطا نفسه بفلاسفة شباب مثل فرانسوا آزوفي، و مارك دولوني، و دومينيك بوريل.

بناء (الذات الفرد) soi

ضمن هذا السياق يعود ريكور الى مسألة (الذات المزدوج) (sujet 7) بعمل (هو بوصفه غيره) الذي يصدر عام 1990، والذي ليس (عودة) بأية حال الى المسألة نفسها، عودة الى أنا ego مصادر (أو مسلم به) يعود متسللا الى نفسه، خارجا من رحلة بنائية. على العكس تماما فإن هذه العودة الى (الذات) المزدوج بوصفه لحظة إجمالية لكل جوانب فكر ريكور ، وبعيدا عن إنكفاء أحادي النظرة solipsiste ، أنه يعرف نفسه بوصفه جدلي الأنا مع

الآخر، لفسح المجال لظهور الذات الفرد soi. يصب جهد ريكور إذن في بناء ما يسميه، بتواضع شديد، (منهج أخلاقي صغير). إن الطلب، والحالة هذه، على المنهج الأخلاقي سيتزايد من جانب المجتمع الفرنسي، ويوظف أطروحات ريكور لإنارة الخيارات الكبرى لمرحلة لم يعد فيها الأمر يتعلق بالاختيار بين الأبيض والأسود، بين الخير والشر، بل بين الرمادي والرمادي، كما عبر ريكور. ما يجعل القضية أكثر قهرية هو خلق ظروف الاتصال الجديدة التي تمكن كل شخص من أن يعبر عن قناعاته الأونطولوجية (نسبة الى علم الكائن- المترجم).

عندما يعين ميشيل روكار رئيس وزراء عام 1988 يصبح ريكور المرجع الأعلى للأخلاقية السياسية ملهما الأسلوب الذي سيحل الملف الحساس لكلدونيا الجديدة. هذا الالهام الرئيسي يصب في حوار بين رئيس الوزراء والفيلسوف تنظمه وتنشره مجلة إيسبري عام 1990. في عام 1994 يحاول ريكور، وهو مهتم دائما بالمجريات اليومية، أن يقنع جاك ديلور أن يحضر الى المناسبات الرئاسية. يحتم على نفسه، وهو وسيط في الصراع حول قضية الذين لا يملكون أوراقا شخصية رسمية، أن يجد حلا إنسانيا للمشكلة إزاء الميول القمعية والردود البوليسية. يدفعه الى طرح تساؤلات رد فعل وزيرة الصحة (جورجينا ديفوا) التي صرحت، أثناء قضية الدم الملوث، بأنها (مسؤولة ولكن ليست مذنبة) مثيرة صخبا عاما. يتخذ ريكور، بعكس الآخرين، هذه الصيغة كنقطة انطلاق للتأمل في قضية المسؤولية وعدم التحديد الذي تعاني منه. يدافع حين يدعى للشهادة في المحكمة عن خلق محكمة مدنية، ويدعو الى النظر في النموذج الأحادي للعقد الاجتماعي، واحد وغير قابل للقسمة كما جاءنا من روسو. يؤكد بالعكس على تفضيله لتعددية المؤسسات الديمقراطية باعتبارها السبيل الوحيد القادر على انعاش النقاش وفك التشابك في المسؤولية الشرعية لكل مقرر أمام المؤسسة التي ينهض بواجباتها، والجرم الذي يجب أن يتضمنه بعدها الجزائي. يعاود مدير تحرير جريدة لوموند (جان-ماري كولومباني) تناول هذا المضمون جزئيا في مقاله التحريري ليوم 11 آذار 1999.

يقول ريكور في المحكمة (أحلم بلحظة تحقق، بمرافعة حضورية، بشيء مثل قاعة محكمة مدنية تكون بمثابة حكم العلانية مقابل الغموض، حكم السرعة مقابل المماطلة، حكم المستقبل ضد ماض لا يريد أن يمضي). يعبر اتخاذ هذا الموقف عن الاصرار الذي جعل ريكور يعرف

قيمة الأخلاقي، الأمل في حياة كريمة، على طريقة أرسطو، في وضع أكثر أصالة تكون ثمرته أن تسود الأخلاقية وأن ينتفي القانون. هذا التأمل هو نتيجة كل مسيرته التي يكفي أن نضيف اليها حواره الأخير مع المختصين بالقضاء الذي أفسح المجال لمداخلات منتظمة منذ بداية التسعينيات في إطار (معهد الدراسات العليا حول العدالة)ihes الجديد الذي يديره القاضي أنطوان غارابون. إن ريكور يستحضر، واضعا العدل بين القانوني والصالح، عن منتحى على مسافة من العالم الإجرائي للمختصين بالقضاء ، الصرف غالبا، يستدعي الواجب الحتمي الذي يلهم العقد القضائي، يعني يستحضر المطمح الغائي للحياة الكريمة. إن فعل الحكم القضائي الذي يصبح أقل فأقل وضوحا في عالم الحداثة المعقد يجعل من الضروري تفضيل الأنماط المختلفة للنقاش الديمقراطي، التعبير عن القناعات الجماعية، السماح لما يشبهه ريكور، إقتداءً براولس، بالاجماع بواسطة تنظيم مناسب على أساس الاختلافات المعقولة. هذا السعي لحكمة عملية سيحرك فيما بعد مسيرة فلسفية كاملة، سيجتاز الوجودية والبنيوية والفلسفة التحليلية متتبعا خطوط الـ(ما بين) المستقر عند تقاطع البعد التأويلي مع البعد التسامحي، كما في المفصل الذي يلتقي فيه التدليل بالتأويل. هم العدل هذا قاد ريكور الى طرق لما يشبهه بهوية قصصية تخاطر، في (زمن طغيان الذاكرة)، بأن تكون مختلطة، بتكرار بسيط حول تقليد ما بحيث يمكن أن يصبح العدل مصدر انكفاء هوياتي مقصيا بعد الغيرية. هذا الهم القريب من تعريف (فيتغنشتاين) لدور الفيلسوف الذي يوجب على نفسه القاء الضوء على القواعد المقومة للعقل العملي، يقود ريكور الى التساؤل اليوم عن الصلة الاشكالية، المعذبة، بين التأريخ والذاكرة، بين (امتلاء بالغ) للذاكرة وبين (عدم اكتفاء) الذاكرة، وهو مصدر لباثولوجيات مضاعفة لابد من تجنبها لبناء ذاكرة جماعية على سجل تجديد البناء لميراث جمعي.

إن ريكور وهو، حسب تعبير كوزيليك، محمول دائما نحو المستقبل وأفق الأمل، بزيارته من جديد لمنطقة المؤرخ ، كما عبر صديقه أندريه ديما، يبرهن بأن (الأمل هو الذاكرة منقحة).

*

المصدر: magazine littéraire --- dossier: paul ricœur nº 390 septembre2000

عنوان المقال الأصلي la philosophie au cœur de la cité

هوامش المترجم:

(1)Idee بالألمانية يعني أيضا (فكرة) أو (مفهوم) كإصطلاح فلسفي يخص الأعمال التي تتناول أفكارا على حدود الثيولوجيا والفلسفة.

(2)- confessante مؤمنة نسبة الى جماعة مسيحية تسمي نفسها بهذا الإسم كما يوجد عندنا في تأريخنا جماعات كالتوابين ونحو ذلك والمفردة من confession وهو الاقرار والاعتراف وعندنا يقابله لفظ التسليم ومفردة confessionel تعني (مذهبي) عموما.

(3)- في المقدمة التي كتبها ميكائيل فويسل و أوليفييه مونجن للعدد الخاص بريكور الذي أصدرته إيسبري بمناسبة مرور عام على وفاته (عدد آذار-نيسان 2006) يذكران أن ليفيناس كتب في العدد الخاص بريكور تموز-آب 1988 عن ريكور المعروف ليس كما يجب أو الذي جرى تجاهله، ريكور السياسي، مفكر الحدث والتواق للتأمل في الفعل مثل (حنه أرنت).

(4)- herméneute المهتم، المختص بالهيرمينوطيقيا (علم التفسير والتأويل النصي... كان في أول أمره يستخدم لتفسير النصوص الدينية فقط).

(5)- في المقابلة التي تضمنها الملف في المصدر يجيب ريكور عن سؤال حول علاقته بـ(لاكان) قائلا: (إنها معقدة لدرجة أنني الى الآن لا أفهم ما حصل لي. كانت بيني وبين لاكان تجري لعبة القط والفأر، وكان هو القط) ويلقي ريكور ذات يوم محاضرة عن قراءته لفرويد (كان لاكان حاضرا. رافقني في طريق العودة الى باريس. حاول أن يغريني بالمجيء الى حلقته الدراسية وهو ما فعلته دون أن أفهم شيئا من محاضرته. في الوقت نفسه واصلت العمل على كتابي الذي إن لم يكن في الواقع كامل الانجاز فهو على الأقل مبني جيدا. حين ظهر الكتاب (عن الترجمة)1965 استشاط لاكان غضبا واتهمني مرارا بأنواع التهم كالانتحال والاحتقار...).

وفي معرض جوابه عن سؤال حول محاربة البنيويين له يقول: (كنت مقصيا تماما. لم أستطع مواصلة الحديث إلا في الولايات المتحدة عن فرويد وعن التحليل النفسي وعن تناول فرويد للثقافة والجمالية. كنت في فرنسا كالممنوع من الاقامة بطريقة ظالمة ومضحكة ومزيفة....).

(6) فيلسوفة وكاتبة قصص أخرج مؤخرا فرانسيس فورد كوبولا عن قصة لها فيلم (شباب بدون شباب).

(7)- في مقال (جي بتيتدومانج) رئيس تحرير (أراشيف فلسفية) والمعنون (مفهوم الذات المزدوج) la notion de sujet ضمن ملف مجلة مغزين ليتيرير (المصدر) يقول ما نصه (إن هوية الذات sujet تنشطر الى شخصين مختلفين ولا يمكن تفريقهما، شخص mêmeté الذي وفقا له يستمر الذات في الزمن، هو نفسه وشبيه لكل شخص آخر، وشخص ipséité به يكون sujet منذورا لفرادة دون مقارنة، في عزلة استثنائية تلائم كل الناس وتختلف باختلاف كل منهم عن الآخر) وفي موضع آخر في معرض ذكره تشخيص

ديكارت ونيتشه (الذات بوصفه تعددية sujet comme multiplicité) إستنادا الى هذا التوضيح وتوضيحات أخرى لا مجال لذكرها جاءت ترجمتنا soi بمعنى الذات الفرد و sujet بمعنى الذات المزدوج (أو المضاعف، أو المتعدد، أو المشترك،... إن شئتم) للتمييز بين مدلوليهما الفلسفيين، متبعين التصنيف المعجمي في مدخل philo– لهذه المفردة بمعنى ذات.

نور الدين فارح

تقديم المترجم:

ولد نور الدين فارح عام 1945 في بيدوة بالصومال. درس في الهند وإنجلترا. هو أول كاتب صومالي ينفصل عن التقليد الشفاهي. تُرجم عمله إلى اثنتي عشرة لغة وعدّ واحدا من اعظم كتاب أفريقيا المعاصرة. قضى سنوات عديدة في المنفى بنيجيريا ويعيش اليوم في أفريقيا الجنوبية قرب الكاب. خصصت المجلة الفرنسية الفصلية (نوتر ليبرير) التي تعنى (بآداب الجنوب) عددها 152 تشرين الأول ـ كانون الأول 2003 لآداب شرق أفريقيا المكتوبة باللغة الإنجليزية، والقسم الثالث من هذا العدد الخاص عن (أربعة كتاب ممتازين) أولهم هو نور الدين فارح مع عبد الرزاق قرناح وشنجري هوف وجمال محجوب. يتضمن العدد نصوصا أو مقتطفات لهؤلاء الكتاب أيضا فضلا عن دراسات ومقالات وعروض لأعمال العديد من الكتاب باللغة الإنجليزية في بلدن شرق أفريقيا.

*

من المناسب أن نقسم خط سير نور الدين فارح مع الأدب إلى مرحلتين. المرحلة الأولى عام 1969 تسلم المسؤولون عن (افريكان رايترز سيريز) بمؤسسة هاينما مخطوطة عنوانها (من زوجة غير مستقيمة) كتبتها امرأة اسمها (عبلة) ويمكن أن يخطر أي شيء على البال غير ان يكون اسم المؤلف مستعارا لأنه لا يمكن ألا لامرأة (حقيقية) أن تكتب نصا نسويا كهذا النص. المرحلة الثانية.. ذات يوم من عام 1975 كان الكاتب في روما، وقد أصبح مثقفا مشهورا في الخارج، يهيئ نفسه لركوب الطائرة عائدا إلى مقاديشو ولكن في آخر لحظة يواجهه شقيقه الأكبر قائلا (عليك أن تنسى الصومال وتعتبرها كإنسان مات ودفن. هذه البلاد لم تعد موجودة بالنسبة إليك) والواقع أن نور الدين قد جعل من نفسه شخصا مكروها بشكل خاص عند الجنرال الديكتاتور سياد بري. كانت تلك اللحظة بداية نفي لم يبلغ نهايته إلا بموت سياد بري عام 1991 إلا أن الفوضى السياسة التي سادت الصومال بداية التسعينيات لم تسمح للمحرض المثابر بالعودة والاستقرار الدائم فيها أبدا.

مجاميع مترابطة

هاتان المرحلتان المذكورتان واللتان شكلتا إطارا لمقتربات نقدية كثيرة يجب أن لا ينسيانا الجوهري وهو العلاقة التي يقيمها واحد من اعظم كتاب اللغة الإنجليزية مع (بلاد خياله)، والحضور للمادة الشفاهية التي لابد أن تدهش القارئ، واخيرا البحث عن هويات لا تكون مقيدة أو ناقصة أو مشاعة. إن عمل نور الدين حريص قبل كل شيء على مسار الأفراد فيه. ألف نور الدين تسع روايات (آخرها رواية روابط التي طبعت في أيار 2003 بأفريقيا الجنوبية) وبحثا (أمس، غدا) وعدة مسرحيات لم يسبق نشرها عدا مقالات نظرية مهمة والسيرة الذاتية الرئيسة. تتألف أعمال نور الدين ، باستثناء روايتين للفتيان ، من الثلاثيات التي هي (تنويعات حول ثيمة الديكتاتور الأفريقي . والمجلدات الثلاثة التي ظهرت بين 1986 و 1998 وضع لها عنوان (من الدم إلى الشمس) تستقصي موضوع الأثر الجديد (روابط). يوحي لنا نور الدين أن عمله هذا قد يكون بداية ثلاثية ولكنه غير متأكد ومثل هذا التردد لا يمكن إلا أن يدهشنا فثلاثيات نور الدين تشكل مجاميع مترابطة رمزيا وموضوعيا حيث الفرديات هي التي تربط ما بين الروايات المختلفة وليس بموجب أي خط روائي كان.

قررت لهذا التحليق فوق عمل نور الدين فارح أن أحاذي عمله ببعض من خباياه أو ببعض من هوامشه وقبل كل شيء بوصفه نصا شعريا دائم التجدد وبلا توقف.

مشاهد حلمية: بدايات وأسطورة

يؤكد النقد غالبا، ودون تحديد دائما، ميل شخصيات نور الدين إلى الاستسلام للحلم. الاستسلام هو نقل صور الحلم إلى موشور الكلمات، إلى الكلام، ولكن الاستسلام هنا ليس كليا. الحالة البارزة في الصفحة الأولى من (اغلق يا سمسم) لا تتعلق بوضع الحلم حصرا، إذ توجد العشرات منه في عمل نور الدين، بل بدخول تدريجي في القصة عن طريق استعارة روائية، استيقاظ الشخصية الرئيسة وهو المسلم الورع ديري والذي يعبر من طيف زوجته المتوفاة (نظيفة)، الذي يزوره وهو نائم صباحا أو في القيلولة، إلى الوعي التدريجي بالعالم الذي يحيط به. هذا العبور يحصل بفضل العلاقة الصوفية بين الرجل المؤمن و(ربه). الشعائر تترافق واستنباطات نصية وحسابية للإلهام الصوفي، يمر وهو في وضع بدني من النوم إلى اليقظة. الرجل الشيخ يرافق القارئ في عبوره من (الإضافي على عالم القصة) إلى عالم القصة نفسه. لا يوجد تناقض في كون الطرق المتبادلة بين البطل والقارئ متوازية ومتعاكسة في الوقت نفسه.

الوعي التدريجي بالعالم (الواقعي) بالنسبة إلى ديري هو الدخول إلى (الخيالي القصصي) بالنسبة إلى القارئ. ما قول القارئ الغربي أو على الأقل القارئ غير المسلم بشأن (الغرابة) المحتملة لمثل هذا الاستهلال؟ يريد نور الدين عن طريق شخصية ديري أن يعطي صورة عن الإسلام المعقد، المتعدد، الملغز، الجدلي. شرحه هذا موجه إلى القراء الأوربيين أو الأمريكيين الشماليين أكثر مما هو موجه إلى المثقفين الأفارقة غير المسلمين، وموجه حتى إلى القارئ المسلم في أفريقيا الغربية (أبناء الهوسة من نيجيريا مثلا) أو من المغرب التي تسمح ممارستها الدينية هنا لم توصف كممارسة طائفة بل كممارسة إنسانية: تمرد يقحم القارئ في عالم سام بالضرورة وليس مبسطا.. مختلف و (مخالف). هذا الدخول يمر بصورة حلمية وتصورات مجردة تطبع/ تضبب الواجهة بين العالم الواقعي والعالم الخيالي. نص آخر محاك

من الأحلام هو (عطايا) 1993 يكتب بحبكة غرامية واضحة الكلاسيكية شبكة صور من لا نهائية غنية خصوصا في ميدان قصص الحلم. بداية الفصل الخامس، من هذه الزاوية، بداية مضيئة. ككل قصص ما وراء الخيال Metafictionnel دون صلة مباشرة بالحبكة يطرح حلم موساسو سلسلة من الأحجية.. صور النسر، والزقزاق، وجمجمة الطفل، والمرأة ذات الملابس متعددة الألوان تثير تساؤلا من جانب القارئ قصة الحلم، وهي كيان ما وراء خيالي مستقل تماما، تستدعي تأويلا. الحالم، وهو يستقر في (الما بين) يمكن مقارنته بالتفسير وهو بين الدال والمدلول، مخالف/ موافق. من جانب آخر فإن الأغراء العظيم والمبرر تماما لتأويل هذه الصور وهي تعمل في نص (بيني) عجيب، بتفاسير الأحلام العربية وبشكل خاص تفاسير ابن سيرين. الأكثر إدهاشا هنا يأتي من حالة إيضاح موضوع حلم إحدى الشخصيات (دنيا) وهي (التي تنام، وربما تحلم به هي أيضا). بوساسو يتوجه رجوعا إلى مؤلفه. الوضع الحلمي يشوش المراجع اللغوية والحكائية التي تستقر عليها الشروط الأدبية. لم نعد نعرف من يحلم بمن ما دام الكل مختلقا، الكل شخصيات خيالية. في(أسرار) 1998 تشكل قصة الحلم نقطة انطلاق ثالثة في الرواية. بعد استهلال وفصل أول بقصد الحكمة انعطفت قصة الحلم نهائيا نحو النص (ما وراء الخيال). يدهشنا حلم كالأمان، وهو استعارة ملغزة ومرآة للرواية في آن معا، ببنائه وشبكة مجازاته بغناه العظيم. الرجل العجوز الذي يسترجع لنا اليوتوبيا الأفريقية والورع البهي لديري في (اغلق يا سمسم) يخلي تدريجيا المكان إلى شخص أكثر سلبية هو الشاب الذي (يلعن عائلته لأنها تحتل مكانة وضيعة) في النظام القبلي (في رواية أسرار). الاستعارة التباينية (اتحاد سماوي حول أخوة نسب القبائل) تستحضر التباين بين النموذج الأسطوري الصومالي الرسمي اسم الأمة نشأ من تعبير (سو مال .. هيا نحلب الجمال) وبين الميول النابذة للنموذج القبلي والتي قادت إلى تشظي الأمة الصومالية باتجاه الحرب الأهلية. الحلم لم يعد مكانا لحاجز موجة باهرة الألوان، ولكنه تعبير الرموز القوية في وسط Diegese هو تعبير مفهم بقوة.

كيفيات ماوراء الخيال

إن واحدة من المخططات (التوبوات TOPO) التي يشترك فيها النقد الأفريقي، حتى الأكثر خبرة منه، هو أن تكاثر الأمثال والحكايات والألغاز برز في الأعمال الروائية لأجيال الاستقلال. المخططات غالبا مبررة وأحيانا لا مبررة، وروايات نور الدين لا تخرج عن هذه القاعدة، حتى ضمن السياق الصومالي فأن دقيق الدرجة الثانية والطبول والأشجار حاضرة في نقاش ممل لا تمتلك أقل صلة وثيقة بالموضوع. عدة حكايات تزين رواياته وخصوصا حكايات الملك ويل . وال الأسطورية في (اغلق يا سمسم) وهي موجهة إلى طفل عمره 12 هو حفيد ديري، وحكايات جوسكا، وOXYMORIQUE المخبول الحكيم في (عطايا).

إن تغريبية حكايات جوكسا مؤكدة على الفور فهي تنتمي إلى الثقافة العربية، ولكون (ألف ليلة وليلة) مثلا غالبة الحضور كما هي في عمل نور الدين فهي ليست إسهامات (أجنبية) فيه كما هي مراجع جويس وفرويد وكولتران. إن قصة (ما وراء الخيال) تقدم، بإختلافها الحكائي، منظورا جديدا.. بطريقة غير مباشرة. في نهاية الفصل الثالث من (أسرار) يوجد نص بحروف مائلة يبدو قطعة فائضة وفي مستوى فوقي لقصة (ما وراء الخيال) وسط. Diegese

النص كتب (مسنودا إلى) شخصية، هي شولونغو. أقصوصة جديدة تخفي مغاليق عديدة ليس صعبا حلها بأية حال. موسومة بعنوان (استعاري ومثلي) وبشكل حداثوي قصدا (القد الذي يسخر من سواد الغراب). هذه القصة القصيرة تختلف عن قصص (ما وراء الخيال) الصرفة التي هي الحكايات. إنها تقدم معابر واضحة جدا مع بقية الرواية: (ك) يستحضر لنا (كالامان)، والمالك يذكرنا بـ(نونو) الجد... إلى آخره.

قبل إدراج هذا النص في نسيج الرواية لم تكن شولونغو مبرزة أو موصوفة إلا من خلال موشور مشوه هو وجهة نظر كالامان الذي غدا يافعا يتساءل عن مصير حب طفولته لشولونغو. عودة المصعد هذه أو بعبارة أخرى، إذا استخدمنا نفس ألفاظ الاستعارة التي تطرز المقطع، (المرآة التي تعود) أو التي تأتي لتعكس المرآة الأولى، غير المتوقعة الصعبة بالنسبة إلى ما اعتدناه من كالامان.

إن ادراج الأقصوصة التي (كتبتها) شولونغو يسهم بعمق في الرواية ذات البناء الحواري ومتعدد الأصوات. إنها تعكس اتجاه وجهة النظر، مجنسة أكثر مما هي جنسية، وقد وهبت فرصة الكلام، أو تعبير أدق، وهبت لها فرصة الكتابة، وتتهذب وتصبح شخصية معقدة حقا.

يبدو من غير المعقول أن لا تذكر هنا النقوش الكتابية التي نبدأ بها كل فصول (عن الحليب المز) 1979.

تشبيهات بنمط واحد، وإيضاحات شعرية مختصرة إلى أبعد حد، ومسودات قصصية. هذه النقوش تنسجم مع كل الفرضيات السيمانطيقية والوظيفية: أهي مرمزات؟ مجازات؟ دروب مضللة؟ تبعثر نصي يعكس الحقيقة المجزأة، الوهمية، الخادعة للمجتمع الصومالي تحت وطأة حكم سياد بري؟ وحيث نعود من هنا إلى البداية ونولي اهتمامنا بالفصل الأول نجد حصرا عدة درجات تفصل عنوانه عن السرد: هي نقاط توتر، نقوش، وصف الشمس، استعادة مفاجأة التمهيد الأخيرة (موت الشقيق التوأم) . كذلك يبدو أن الفصل لا يبدأ إلا ليطلق بحق مونولوجا داخليا للشخصية الرئيسة. لا شيء يميز القصة عن (إضافي القصة)، عن الكون الخيالي (لآخره). الملاحظة نفسها واجبة بالنسبة إلى مستهل الفصل العاشر. فضلا عن ذلك إذا ما كانت إحدى النقاط المشتركة بين هذه النقوش هي حضور الأطفال الصغار جدا أو الرضع فأن بعض النقوش تخرق القاعدة (الفصل الأول) وأكثر من هذا يستحيل إقامة أي تسلسل أحداث.. (الفصل السابع . وليد)، (الفصل الرابع . طفل) ، (الفصل العاشر . جنين).

مشهد الذات

الناقدان (باتريسيا آلدن) و (لوي تريمين) هما اللذان أكدا في دراستيهما المنفردة على مفهوم (قص . ذات) أو (ابتكار . ذات). معظم شخصيات نور الدين فارح ، وخصوصا في الثلاثية الثانية، وبالتأكيد في (سردين) أيضا، تبتكر هوياتها بأن تروي نفسها وتبتكر تاريخها بأن ترويه، وهذا شرح مزدوج محتمل للذات التأملية إن رواية الذات ترجع إلى رواية تاريخ الذات.

في قصة (مقاطعات) 1986 ثمة تناوب صارم للأصوات السردية (ولضمائر) تسمح (بالدوران حول) الشخصية، أحيانا بصيغة (أنت . الفصول 1و4و7و10) وأحيانا راويا صريحا (أنا . الفصول 2و5و8و11) وأحيانا موضوع قص بصيغة الشخص الثالث (هو . الفصول 3و6و9و12) الشاب (عسكر) الذي يبلغ السابعة عشرة لا يكف عن العودة إلى أصوله وإلى علاقته بأمه التي تبنته وأيضا إلى هويته (الوطنية). تقسيم (الذوات) في القسم الأول من الفصل الرابع يوضح ما يستكشفه باقي الرواية. تعدد الأصوات ليس إلا شبحا شيزوفرينيا مضيعا للشخصية.

تجد قصة الذات، في هذا المقطع، صدى سلبيا جزئيا، أمنية عسكر اليوتوبية (If each could fabricate a story) تعتمد على استعمال فعل بمعنى يختلق، فعل تزوير. توجد عدة مستويات هوياتية، وعدة شبكات ذاتوية، ما بين بداية الفصل (الأنا آتية من أعماق (ذاتك) و (أنا آخر... أصغر سنا وأكثر ثقة بنفسه بالتأكيد) تبرز تدريجيا.

إنها رواية يمكن تفسيرها بالاستعانة بكل نظريات التحليل النفسي، وبالتأكيد بكل نظريات التفسير النصي. تسلط رواية (مقاطعات) الضوء بالمقابل على التشتت الهوياتي لمواضيع ما بعد الكولونالية. كيف يتخيل هويته في ضوء عمل الدلالات الجغرافية، في ضوء عمل شواخص خرائطية موروثة عن المستعمرات؟ كيف يعمل فكره في الوطنية الصومالية دون أن يقصي هؤلاء الذي لا يتكلمون اللغة الصومالية ولا يستطيعون أن يصفوا أنفسهم بأنهم أثيوبيون؟ أن يكون نور الدين واحدا من الأصوات الرئيسة في الأدب الأفريقي، وبالتأكيد، في المشهد الأدبي العالمي، فهذا لا يبعث الشك فينا بهوية نصوصه المنبثقة من أفريقيا الشرقية. إن عمله، ذا الواجهات المتعددة، يتكشف بلمسات رقية من دون أن يبوح مع ذلك بكلمة التاريخ الأخيرة. إنه عمل سهل من وجهة نظر ما (الجرأة فيه ملطفة) ألا أن قراءة رواياته تتطلب انتباها شديدا سواء إلى صوره المعقدة المبثوثة في عمله أو إلى البعد السياسي فهو منقى من الوساوس المؤسلجة Sociologisantes وبهذا فهو محرر من العمق الواحد الخاضع للسوسيولوجيا..

نبذة عن المترجم

جودت جالي من مواليد 1951 في بغداد بقرية الرستمية. مارس هواية الرسم والتمثيل والكتابة للمسرح في النشاطات الطلابية والشبابية وكتب الشعر ونشره وحاز على العديد من الجوائز في المهرجانات الشبابية والطلابية وجائزة تقديرية من إذاعة صوت الجماهير. له قصائد وقصص ومقالات منشورة منذ أوائل السبعينيات. عضو اتحاد الأدباء وله كتب:

عن دار الشؤون الثقافية

***(نصوص عن بول ريكور) 2012 مقالات مترجمة عن فكر ريكور بقلم ريكور وكتاب آخرين.**

***(في المنهج الأخلاقي للعمل السينمائي) 2016 مقالات مترجمة لعدة كُتّاب.**

وعن دار ضفاف:

***(التودد الى الزوجة) 2018 مختارات قصصية مما ترجمه خلال ثلاثين عاما.**

***(فك الحزن) 2017 مجموعة قصصية.**

***(ماروا العجوز حكمان عن الفتى الجميل جوهر) 2018 مجموعة قصصية.**

***(جهات السينما الأربع) 2017 مقالات في أفلام سينمائية.**

***(الهجاء السياسي في الشعر العراقي) 2017 مقالات في الأدب والفن والثقافة عموما.**

***(لا وقت لهديل الحمام) 2019 رواية قصيرة.**

وعن دار المأمون:

***(حرب المهرجين) 2019 مختارات قصصية لكتاب عالميين.**

وله قصة (ممشى الكالبتوس) في كتاب مشترك (مسابقة سافرة جميل حافظ للقصة القصيرة دورة 2017).

ومن إصداراته الألكترونية:

***(شداد تحت الخربوش) رواية بدوية 2020**

***(الهروب العظيم)مجموعة مقالات ثقافة عامة منوعة**

***(أكاذيب) مختارات قصصية أجنبية مترجمة**

***و(نقطة تبادل التوابيت) مجموعة قصصية**

منح شهادة تقديرية من اتحاد الادباء والكتاب في العراق.